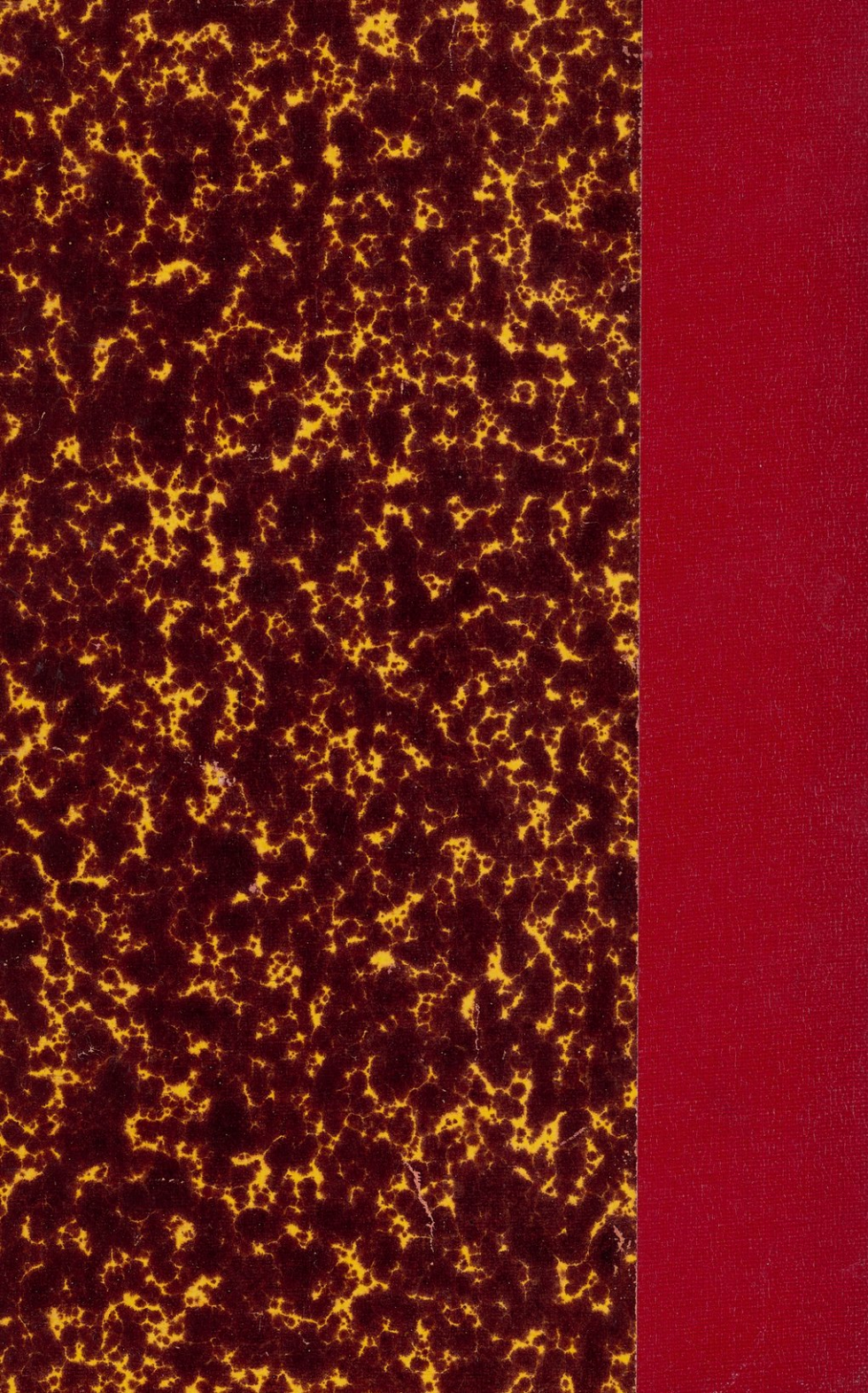




AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



خَلْدُونِ الْيَمَانِي

892.78

Ha3651YkA
C.1

حسان بن ثابت

« محاضرة أقيمت في دار المعلمين العليا (آذار ١٩٤٣)
ثم زيدت وفصلت »

59259

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

عنيت نشره

مكتبة هـ بدمشق

مطبعة الترقى بدمشق

١٣٦٢ هـ ١٩٤٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . أما بعد فإن الذين درسوا شعر
 حسان فربما انفرقوا أجله لصحابه للنبي ﷺ ، وذوده المشهور عن حمي الإسلام ؛
 وكتب عنه وهو مقيد بقيود الإعجاب والاحترام ، فأطرى كل معنى ، وطرب
 من كل لفظ ، وأغضى عن كل سقطه ، وكال له المديح كيلاً ؛ وفرق قرأ شعره
 فلم يستسغه ، ودُهِش لتهذيب هؤلاء النقدة في الرفع منه والثناء عليه ؛ ولما طالت
 دهشته ظن أنه المخطئ ؛ وأنهم المصيبون ؛ فانضم إليهم ، وردد أقوالهم ، وهو
 لا يشعر كما يشعرون .

أما هذه الدراسة فقد نظرت إليه نظرها إلى شاعر له القول الجيد والردئ ،
 والمحكم والضعيف ، والبديع والغفيف ، وحاولت أن تدل على مواقع كل ذلك
 في شعره ، وأن تدرسه على وجه التدقيق والإيضاح والتفصيل .

فإذا استطاعت أن تعين القارئ على تقدير لشعر حسان صحيح ، وأن
 تنشيء بينه وبينه صلة الود التي تكون بين الأليف والأليف ؛ وخرج منها
 المتعلم المتأدب عارفاً لخصائص أقوال شاعر يثرب ، مستغنياً — حين يشاء الكلام
 عليه — عن الاستنجاد بالمعاني العامة ، والألفاظ البعيدة عن الدقة ، التي نصح في
 كل شاعر ، وبلو كها اليوم كل لسان ، فقد بلغنا القصد من درس حسان ؛
 والله الموفق .

حسان بن ثابت

سيرته

هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام من بني النجار من الخزرج ، يجمعه والغسانيين ملوك الشام ، والمناذرة ملوك العراق عمرو بن عامر بن ماء السماء جد القحطانيين اليمانيين الذين نزحوا عن بلادهم ، في جنوب الجزيرة العربية ، واستوطنوا الشرق والشمال ^(١) .

وُلد في يثرب ، في بيت عريق الأصلة ، شهيد الفعال ، عبد المكرمات ، بتوارث فيه الشعر الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد ^(٢) ؛ وعاش في بلده ، كما يعيش المتدفون من أولاد الكبراء أليف الدين والعيش الهنيئ والبال الرخي ، بنعم بما يسع بيئته أن تقدمه له من الطيبات ، وبذلك ^(٣) طلاوة المنادمة في مجالس الأنس على لمعة الخمرة في كؤوس الندمان ، وغنة ^(٤) الشوة في أفواه القيان الحسان .

وكان يقدو على الناس مزهواً بالنسب الرفيع والحسب المجيد والشعر الجيد . فإذا ما لحقته منهم قارصة أو ناله عدوان ، أو استعر الخصام بين قبيله وأبناء أعمامه من الأوس ، وسَلَّ السيف واللسان ، ردَّ عن حوزته العادين بالهجاء حيناً وبلافتخار في أغلب الأحيان .
ولما ألفت نفس حسان اللاهية الزاهية الطموح رَغْد يثرب القليل

(١) تزل المناذرة للخميين العراق ، وآل جفنة الغسانيون الشام ، والأوس والخزرج يثرب ، وخزاعة مكة ، والازد عمان . (٢) كان أبوه ثابت من أشرف بني الخزرج وشعرائها ، وكان جده المنذر بن حرام سيداً في قومه وشاعراً وكريماً : حكم بين الأوس والخزرج ، في يوم سميجة ، فأهدر دماء الخزرج واحتمل دماء الأوس . وكان عبد الرحمن ابن حسان وولده سعيد بن عبد الرحمن شاعرين أيضاً . (٣) لَذَّ الرجل الشيء : وجده لذيقاً . (٤) الغنة : الصوت من الهاة والأنف .

المحدود ، وملته ، وظلمت التنويع له والمزيد منه — كما هو دأب
 طلاب اللهو والنعيم — مد شاعرنا غينيه إلى بلاط أقاربه الغسانيين حيث
 العيش الضاحك والبساتين الغناء والخمور المعقمة والألبسة الفاخرة ؛ فشد
 إليها الرجال ، وودع دور بلده ، حتى حين ، ونزل قصور ملوك الشام .
 قصد أول ما قصد — الأمير الغساني جبلة بن الأيهم حاملاً إليه شرفاً
 فاخراً وجاهاً عريضاً ومنادمة حلوة وطبعاً سميحاً ولساناً شاعراً . فأحسن
 الأمير لقاءه ؛ وأجاد حسان الشكر والثناء ، وحظي عند ممدوحه حتى صار
 يقدو عليه سنةً ويقيم في أهله أخرى .

ثم تعود حياة الرفاهية في قصر الأمير ، وضعف رونقها في غينيه فطمع
 في عشرة الملك الغساني نفسه : عمرو بن الحارث ^(١) ، وجعل يقد عليه في
 السنين التي لا يزور فيها جبلة ؛ فأكرم الملك العربي مشواه ، وجعله من
 خاصته ، وأجده ^(٢) وأفضل . وقد بلغ من عنابة عمرو بن الحارث به
 أنه كان يخاف عليه — وهو الشاعر الناشئ — من النابغة وعلقمة وأشباهها
 من الشعراء الفحول ، ويمنعه ، متى حضروا مجلسه ، من الإنشاد ، مخافة
 أن يفضحوه .

« فاتفق أن قدم حسان على مليكه مرة فاعتاص ^(٣) الوصول إليه فقال
 للحاجب بعد مدة : إن أذنت لي عليه وإلا هجوتُ اليمن كلها ، ثم انقلبت
 عنكم ، فأذن له فدخل عليه فوجد عنده النابغة ، وهو جالس عن يمينه ،
 وعلقمة بن عبدة ، وهو جالس عن يساره . فقال له الملك : يا بن الفريضة ^(٤) ؟

(١) الأغلب أنه ولي الملك عام ٦٠٨ — ٦١٠ م (٢) أجده وأجدا عليه : أعطاه .

(٣) اعتاص : ضعب . (٤) الفريضة بنت خالد بن قيس الخزرجي أم حسان .

قد عرفتَ عيصك^(١) ونسبك في غسان ؛ فارجع فأني باعث إليك بصلاة سنينة
ولا أحتاج إلى الشعر ؛ فأني أخاف عليك هذين السبعين : النابغة وعلقمة
أن يفضحك . وفضيحتك فضيحتي ؛ وأنت والله لا تحسن أن تقول :
رفاقُ النعال ، ظيبتُ حجازاتهم يحيمون بالربحان يوم السباسب^(٢)
فأني حسان وقال : لا بد منه ؛ فأشد لاميته التي مطلعها :
أساءت رسمَ الدار أم لم تسأل بين الجوابي فالْبُضيع فحومل^(٣)
فلما انتهى قال الملك : هذا وأبيك الشعر ، لا ما يعالاني به منذ اليوم^(٤) .
هذه والله البتارة التي بتزت كلَّ المدائح . (الأغاني ج ١٤ ص ٣) .
طاب لحسان المقام في الشام والتنقل في قصور الغساسنة متمتعاً بلهو الحياة ،
شاهداً تلك المجالس التي « تصطف فيها القيان بالبرابط^(٥) » ، وبفد اليها
المغنون العرب من مكة وغيرها ، ويجلس فيها للشرب ، وقد فرشت بالأس
والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب فيها العنبر والمسك في صحاف الفضة
والذهب ، وأوقد فيها العود المندي في الشتاء ، وجعل فيها الثلج في الصيف . . .
هذا كله مع حلم عمن جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة ، مع حسن
وجه وحسن حديث من غير خناسة قط ولا عريضة^(٦) . وظل شاعرنا
يتذوق أفوايق المناء ، وينهل من سلسبيل الرفاهية حتى انقض الفرس على
الروم في الشام ، وغلبوه وهدموا دولتهم (عام ٦١٣ — ٦١٤ م) وقضوا

(١) العيص : الأصل . (٢) رفاق النعال كناية عن أنهم ملوك لا يعرفون نعالهم فلا
تقلظ . الحجرة : معقد الأزار . ويوم السباسب : يوم الشعانين عند النصاري وهو الأحد
الذي يسبق الفصح ؛ دخل فيه السيد المسيح أورشليم فحياه الصبيان بأغصان النخل والزيتون .
والبيت من قصيدة للنابغة في مدح عمرو بن الحارث . (٣) الجوابي والبضيع وحومل :
مواضع في حوران . (٤) علاه : سلاه . منذ اليوم : في هذا اليوم . (٥) البربط : آلة
موسيقية تشبه العود ؛ جمعها : برابط . (٦) راجع الأغاني ج ١٦ ص ١٥ .

على ملك آل جفنة ؛ ففرّ بعض أمرائهم إلى بلاد الروم ، والتجأ الآخرون ،
وعلى رأسهم جبلة بن الأيهم آخر ملوكهم ، إلى داخل الصحراء ^(١) ؛ وعاد
حسان إلى بلده وهو يمسح عبرة وبكتم حسرة ، وقد أفاد من مقامه عند
الملوك حكمة وعبرة :

من بقر الدهر ؟ أو بآمنه من قبيل بعد عمرو وحجر ^(٢)

وكانت الذكرى تهيجهم ، من بعد ذلك ، بين الحين والحين ، فيذكر
عهدهم ويحيي ديارهم :

ديار ملوك قد أراهم بغبطة زمان عمود الملك لم يتهدم ^(٣)

وما كان ليشتغل عن الحنين إليهم وبكاء مجدهم الضائع وعزم الحطم
لولا ان كانت يثرب ، في ذلك الزمن ، تهيباً لانقلاب اجتماعي خطير ،
ويتألق فيها سراج من عند الله منير . كان الرسول محمد ﷺ
قد هاجر إليها ونشر فيها نور الدين الجديد بعد أن أراد القرشيون
أن يطفئوه في مكة ، وأسلمت الأوس والخزرج ، فكانت حسان في
جملة المسلمين .

ألفى حسان في دين الإسلام صواباً وهدى وخيراً كثيراً . ألفى فيه
قوة حية زاخرة تجيب إليه العيش بعد تلك الضربة القاصمة التي نزلت
بأحبابه الغسانيين ، ونكشف له عن وجه الحياة ناصح سام حكيم ؛
فأحبه ونافح عنه وعن نبيه منافحة الصادق الخالص الأمين .

وزاده تعصباً للإسلام وتأيمداً له أن هذا الدين الحنيف الرشيد
الهادي إلى الخير وإلى الصراط المستقيم أزهر وذاع وانتشر — أول ما أزهر

(١) امرأ غسان لنولدكه ؛ تعريب جوزي وزريق ص ٤٥ . (٢) عمرو بن الحارث وحجر
ابن النعمان أخي عمرو بن الحارث . والبيت في الديوان ص ٢٠٥ . (٣) الديوان ص ٣٨٨ .

وذاع وانتشر — في قلوب الأنصار من الأوس والخزرج وعقولهم ، وأنه عزّ بسيفهم وأسنتهم ، وبأن للناس فضله وهداه بدعواهم ونصرتهم . فكان كلما كسب معركة ، أو أضاف محمّدة ، وازداد قوة ومناعة ، ازداد حسان وقومه به اعتزازاً ، وبنصرتهم افتخاراً ، وفرحوا بما آتاهم الله من فضله وفضلهم به على القرشيين العدنانيين منافسيهم الأقدمين .

وهكذا أمد الإسلام شاعرنا الفخور المتباهي بمعين من الفخر جديد ، ونفخ من شعره روحاً حياً وعزماً قوياً ، وضمن له حياة خصيبة طوبلة . فلا غرو إذا وقف شعره ، في هذا العهد على امتداح الإسلام والدعوة له ، وتمجيد وقائع المسلمين وبطولاتهم الشاهدة في الدفاع عن بيضة الدين ^(١) ، ورثاء شهدائهم ^(٢) ، وتحريض القبائل الكافرة بعضها على بعض بأمر الرسول ^(٣) وذكر معتقدات المؤمنين ^(٤) . ومع أن حسان كان يؤثر في هذا الدور الافتخار الطويل على الهجاء الشديد في الرد على الذين كانوا يهجون الإسلام وأنصاره من البثر يمين ، ولا يذكر في الأبيات القليلة التي كان يقولها في هجائهم إلا المعنى المهذب واللفظ العفيف ، فلقد كان المهاجرون المسلمون يتأذون منه في سرائر نفوسهم ، وينفرون منه حين يسمعون ما قاله في أقاربهم المكيين .

وكأنما وجدت حينذاك عوامل أخرى غير التنافس القديم بين مكة ويثرب ، وغير هجائه للقرشيين زادت هذا النفور وقوته ، وجعلت أبا الوليد يتسرع بتصديق حديث الإفك واتهام صفوان بن المعطل القرشي

(١) الشاهدة : المدهشة . بيضة الدين : ساحته وحماه . والقصائد المقتولة في هذا الغرض ،

الصفحات التالية من الديوان : ١١ ، ١٢٠ ، ١٨٧ ، ٢٢٣ ، ٣٣٢ .

(٢) الديوان ص : ٣٨ و ٥٣ و ١٧٨ و ١٨٢ و ٣٢٩ و ٣٣٦ . (٣) الديوان ص : ٧٢ .

و ١٠٦ و ١٦٢ . (٤) الديوان ص : ٣١٩ .

بعائشة أم المؤمنين ، ويقول ، حين كثر عدد المهاجرين إلى المدينة من
المكيين قصيدته التي مطلعها :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا وابن الفرقة أمسى بيضة البلد^(١)

« فلما قال هذا الشعر اعترضه صفوان بن المطلب فصر به بالسيف ؛
فأعلموا النبي ﷺ فقال لحسان : أحسن في الذي أصابك ! فقال : هي لك^(٢) .
فأعطاه النبي ﷺ عوضاً فصر بيرحاء^(٣) ، وسيرين أخت مارية القبطية زوج
الرسول ، فهي أم عبد الرحمن بن حسان . » (التنبيه على أمالي القالي
للبيكري ص ٣٦) .

لا ريب أن النبي الكريم ﷺ استاء من أن حسان نفس عليه إسلام قومه
وأفصح بالفاحشة في حديث الإفك . لكنه غفر له زليته لتوبته واعتذاره
إلى عائشة بقصيدة موضية^(٤) ، وانصرافه عن التعرض للمهاجرين ، وحسن
بلائه في الرد على الهاجين المفحشين من أعداء الدين .

وكان ذلك بعد غزوة الخندق ، حين قويت شوكة الإسلام ولم يعد
يسمع المكيين مهاجمة المسلمين ؛ فاستعاضوا عن حربهم بالسنان بحرب
اللسان ، وسبهم وشتموهم وأفحشوا لهم بالقول وسلقوهم بالسنة حداد .
« روي أن رسول الله ﷺ لما انهزم المشركون يوم الأحزاب^(٥) وانتهى
إليه شعر أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطالب ، شق عليه وقال : إن
المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ؛ ولكنكم تغزونهم وتسمعون منهم أذى ،
ويهجونكم ؛ فمن بحمي أعراض المسلمين ؟ فقام عبد الله بن رواحة

(١) الجلابيب : الثوب الواسع . وكان المكيون يعرفون في ثرب بجلابيبهم . وبيضة البلد : الخامل المذكور .
(٢) أي صفتحت إكراماً لك . (٣) قصر في ثرب . (٤) الديوان ص : ٣٢٤
(٥) غزوة الخندق .

فقال : أنا ؛ فقال : إنك لحسن الشعر ؛ ثم قام كعب بن مالك فقال : أنا ؛ فقال :
وإنك لحسن الشعر ؛ ثم قام حسان فقال : أنا ؛ فقال : نعم اهجم أنت ! فإنه
سيعينك عليهم روح القدس . وأرى حسان الرسول لساناً طالما افتخر به ،
فضرب به أرنبته ^(١) ثم قال : والذي بعثك بالحق ؛ ما يسرفني به مقول ^(٢) بين
بصري وصنعاء ؛ ولو أن لساناً فري الشعر لفراه ^(٣) . فسأله الرسول : كيف
تهجمهم وأنا منهم ؟ وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمي ؟ فقال : والله لأسلنك
منهم كما تسل العرة من العجين . فقال له : انت أبا بكر فإنه أعلم بأناساب
القوم منك ! فكان أبو بكر يقفه على أنسابهم ويقول له : كف عن فلانة وفلانة
واذكر فلانة وفلانة ! فقال حسان حينئذ قصيدته التي منها :

وإن سنام المجد من آل هاشم - بنو بيت مخزوم - ، والدك العبد
وأنت زعيم نبط في آل هاشم كما يظلف الراكب القدح الفرد ^(٤)
فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان قال : هذا كلام لم يغب عنه ابن أبي قحافة ^(٥)
(الأغاني ج ٤ ص ٧ وج ١٥ ص ٢٨ وزهر الآداب ج ١ ص ٢٥) .

أضحى حسان ، من بعد ذلك ، لسان الإسلام الشاعر ، بدفع عنه ، ويشهر
مناقبه ، ويفتخر بالانتصار له والكفاح عنه ، ويرد على من كان يهجمه من
المشر كبن بغيريات مثل فرياثهم ، ويستخدم - كما كانوا يفعلون - القول
المقدح والمنطق الحجر .

ولم ينقطع هذا التهاول الشعري المنهك ؛ بينه وبين شعراء الكفار ، إلا
بانتصار الدين الحنيف ودخول خيالة المسلمين مكة غالبين . عندئذ عاد
أبو عبد الرحمن إلى سيرته الأولى يمدح الرسول والمسلمين ويرثي موتاهم ، ويهجو
القول الباقية من المشر كبن ؛ ويفتخر بأنه كان هو وقومه من السابقين إلى

[١] الأرنبة : طرف الأنف . [٢] المقول : اللسان . [٣] فراه : قطعه .

[٤] الديوان ص ١٦٠ والزيم : المدعي المستلحق بقوم ليس منهم . وناط الرجل الشيء :
علقه ؛ والراكب يعلق قدحه في آخر رحله . [٥] أبو بكر الصديق .

خدمة الإسلام . وكان النبي الكريم ، إذا قدمت عليه وفود العرب بشعرائها وخطبائها وتكلمت بين يديه ، يستدعي بعض خطباء المسلمين للرد على خطبائهم ويستدعي حسان بن ثابت للرد على شعرائهم . ومن أجل ردود حسان وأبلغها قصيدته التي قالها مجيباً الزبرقان بن بدر شاعر وفد تميم والتي مطلعها :

إن الذوائب من رفر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تنبع^(١)

ولقد كانت هذه القصيدة من جملة الدواعي لإسلام بني تميم .

لث حسان بناضل أعداء الدين حتى لم يبق منهم ، في جزيرة العرب ، صائح . حينئذ شعر بانتهاء العمل الذي ندب له ، وأدركه الوهن بعد شدة الخوض في يم الحياة ، وعرف أن شهرته الشعرية الساطعة قد آذنت بالرحيل ، وخصوصاً حين انتقل النبي العظيم إلى الرفيق الأعلى وبات هم الخلفاء الراشدين من بعده ، جمع كلمة المسلمين وإزالة المنافسة بين الأنصار والمهاجرين ، وطمس كل ما يبعث الإحزن القديمة التي غطاها الإسلام .

« سرّ عمر يحسان يوماً وهو ينشد الشعر في مسجد الرسول عليه السلام فقال : أرغاء كرغاء البعير^(٢) ؟ فقال حسان : دعنا عنك يا عمر ! فوالله لتعلم أنني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك . فقال عمر : صدقت ، وانطلق » .

ودعا إلى أقول نجم حسان أيضاً نزول الشعر عن المكانة السامية التي كانت له في ذلك العصر ، وتبدل نظرة الناس إليه^(٣) ، وانصرفهم عنه إلى التفقه بالدين والاهتمام بالفتوح الإسلامية الجبارة المحيرة للفكر ، في ذلك الحين .

[١] الذوائب : السادة . وفهر بن غالب بن النضر بن كنانة أصل قريش . وإخوتهم في الإسلام : الأنصار . [٢] رغاء البعير : صوته إذا ضجج . [٣] كان حسان وكعب ابن مالك يعارضان القرشيين الكفار بمثل أقوالهم ، بالوقائع والآيام والمآثر ويعيرانهم بالمتاب . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر . فكان في ذلك الزمان ، أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة . فلما أسلموا وفتحوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة الأغاني ج ٤ ص ٤ .

وبلغ من زهد القوم بشعر حسان أنه كان ينشد هم فلا يسمعون ، ويبذل الجهد ، على هرمه وعجزه وذهاب بصره ، في ملك أذهانهم فلا يصغون . « ولقد مرَّ الزبير بن العوام بمجلس من أصحاب رسول الله ، وحسان ينشد هم من شعره وهم غير نشاط لما يسمعون منه فسأله الزبير قائلاً : مالي أراكم غير آذنين لما نسمعون من شعر ابن الفريسة ؟ فلقد كان يعرض لرسول الله فيحسن استماعه ، ويمجزل عليه ولا يشتغل عنه بشيء . » (الأغاني ج ٤ ص ٧) .

وزاد بعض المتدينين فأخذ يحاسبه على معانيه الحساب العسر . « قال ابن عمر حين أنشد قول حسان :

يأبى لي السيفُ واللسانُ وقوّمٌ لم يضاموا كلبدة الأسد^(١)
أفلا قال : يأبى لي الله ؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله . » (ذيل الأمازي ص ١١٢) .
وكأنما اغنم خصومه القدماء فوصة انصراف الناس عن شعره ، فأنكروا قول رسول الله له : اهجمهم ومعك روح القدس . فكان « يذهب إلى أبي هريرة ويقول له : أنشدك الله^(٢) ! أسمعت رسول الله يقول : أجب عني ! ثم قال : اللهم أبدء بروح القدس ! ؟ فيقول أبو هريرة : اللهم نعم ! » .
(الأغاني ج ٤ ص ٣) .

عاش حسان الضرير العاجز سنيه الأخيرة عبثة اليائسين المكسورين . فلما قتل عثمان ازدادت نقمته على الناس ورثاء مرأت وهدمهم وتوعدهم « ولما احتدم الخلاف بين أنصار علي وأنصار معاوية كان من العثائية الذين يقدمون بني أمية على بني هاشم ويقولون : الشام خير من المدينة » (الأغاني ج ١٥ ص ٢٩) وكان أحب الأمور إليه ، في آخر عمره ، بعد أن منعه حكمة الخلفاء الراشدين من ذكر أعماله وأهاليه في الإسلام ، وملكته الحياة وأنفى جسمه السقام ، أن

[١] ضامه : ظلمه . لبدة الأسد بكسر اللام وضمة : الشعر المجتمع حول رقبة .

[٢] أنشدك : أناشدك واستحلفك .

بمذكر أيام العز والشباب في الجاهلية واليهالي الشرب والمرح في قصور الفساسة .
وكان إذا عاودته تلك الذكريات العذاب ، يحن إليها ويهتزلذ كراها وببكي
عليها . وقد عرف الناس منه ذلك ، ولا سيما ابنه عبد الرحمن ، فكان إذا
حضر أبوه مجلس لهو « وشق وجوده على فتيان قريش ، طلب عبد الرحمن من
القينة أن تغني :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم فبر ابن مارية الكريم المفضل
فبيكي حسان بكاء شديداً ثم ينصرف قائلاً : لعمرى لقد كرهتم مجلسي
سائر اليوم ^(١) . » (الأغاني ج ١٦ ص ١٦)
مات حسان رحمه الله في خلافة معاوية .

عمره

أجمع المؤرخون العرب على أن حسان عاش مائة وعشرين سنة ؛ ستون
منها في الجاهلية وستون في الإسلام ، وذكر بعضهم أنه ولد قبل مولد
النبي ببضع سنين . وروى آخرون أنه مات سنة (٥٠) هـ في خلافة
معاوية بن أبي سفيان .

غير أن المستشرق الشهير نولدكه لا يعتقد أنه عاش هذا العمر الطويل ؛
وبعلل وهم قدماء المؤرخين بأنهم التمس عليهم أعمار ملوك غسان وتسلسلهم ،
ويرجح أن يكون حسان اتصل ببلاط بني جفنة حوالي سنة ٦١٠ م .
بقول نولدكه : مات النعمان بن المنذر الغساني سنة (٥٨٣) م ثم تلاه
الملك الحارث الأصغر ثم الحارث الأعرج ابنه أبو حجر النعمان ابنه
ثم أخوه عمرو بن الحارث الذي اتصل به حسان . هؤلاء كلهم ماتوا

بين ٥٨٣ - ٦١٤ م . فمن المعقول أن يكون عمرو بن الحارث قد ولي الحكم سنة (٦٠٨ - ٦١٠) م واتصل به حسان في تلك المدة . وإذا عرفنا أن حسان مات سنة (٦٦٠) م وجدنا أنه مات بعد اتصاله بالفسانة بخمسين سنة . فلو اتصل بهم وعمره ثلاثون لمات ابن ثمانين . ويختم المستشرق كلامه بقوله : إن في قصائده التي رثى بها عثمان لقوة لا تكون في الشيخ الفاني الذي جاوز المائة ^(١) . «

أقوال النقرة في شعره

نقرة العرب في شعر حسان فريقان : فربق يمدحه ويرفع من ذكره وفربق بذمه ويحط من قدره . أما المادحون فيذكرون أن النابغة « قدم سوق عكاظ فقدم قيسي بن الخطيم الأوسي وأنشده قصيدته التي مطلعها : (أتعرف رسماً كاطراد المذاهب) حتى فرغ منها فقال له النابغة : أنت أشعر الناس بابن أخي . قال حسان : فدخاني منه ^(٢) وإني ، في ذلك ، لأجد القوة في نفسي عليهم . ثم تقدمت فجلست بين يديه فقال : أنشد ! فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم . قال حسان : وكان يعرفني قبل ذلك . « (الأغاني ج ٢ ص ١٦٢) . ويزكرون أيضاً قول الرسول عليه السلام : أمرتُ عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرتُ كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرتُ حسان بن ثابت فشفي واشتفى (الأغاني ج ٤ ص ٦) . وقوله عليه السلام في موضع آخر : إن الله ليؤيده بروح القدس ماناخ عن نبيه . (زهر الآداب ج ١ ص ٢٥) ؛ ويروون أن الأعشى شهد له بالشاعرية وأن الخطيئة قال حين احتضر : أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول :

[١] يراجع للتوسم كتاب : امراء الفساسة لتيودور نولدكه . تعريب جوزي وزريق ص ٤٥ . بيروت ١٩٣٣ [٢] أي خفت .

بُغَشُونُ حَقِّي مَا تَهَرُّ كَلَابِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ^(١)

ويوردون كذلك قول عمرو بن العلاء الذي يرى حسان أشعر أهل الحضر ؛ وقول أبي عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعراً الأنصار في الجاهلية ، وشاعراً النبي في النبوة ، وشاعراً اليمن كلها في الإسلام ؛ وقوله أيضاً : اجتمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر ؛ وقول الأصمعي : حسان أحد فحول الشعراء ؛ وموافقة أبي الفرج الأصبهاني له في هذا الرأي .

وأما الدامون فيدعون أنه قيل له في الجاهلية ، حين وفد على النعمان ابن المنذر ليسأله إطلاق بعض الأمرى من قبيلته « فَإِنْ أَنْتَ خَلَوْتَ بِهِ وَأَعْجَبْتَهُ فَأَنْتَ مُصِيبٌ مِنْهُ خَيْرٌ » ؛ وإن رأيت النابغة فاطمن ؛ فإنه لا شيء لك « (العقد الفريد ج ١ ص ١٧٥) ؛ وأن الملك عمرو بن الحارث الغساني كان يخاف عليه من النابغة وعلقمة . وينسبون إليه أشعاراً ضعيفة لم يحطوا من قيمة شعره^(٢) ؛ ويزعمون أنه أنشد النابغة في عكاظ قوله :

لَنَا الْجَفْنَاتُ الْغَرَّ بِلَمْعِنِ فِي الضَّحَى وَأَسْيَافُنَا بِقَطْرِنِ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا^(٣)

وَلَدَنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَابْنِي مُحَرَّقٍ فَأَكْرَمُ بَنًا خَالًا وَأَكْرَمُ بَنًا ابْنًا

فقال له النابغة : ولكنك أقللت جفانك وأسيفاك ، ونفرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ؛ وقالت الخنساء : نقول (بلعن بالضحى) وكان حقه أن يكون بالدجي ، ليكون أكثر طُرُفاً ؛ وقالت (الغر) وكان حقه (البيض) و (بقطرن) وكان الأجل (يسلم) أو (يجرين)^(٤) .

[١] « هَرَّ الكلب » . نجح . والسواد : الشبح ؛ فإذا الفت السكالب الناس كفت عن أن تهزم .
[٢] قال الأصمعي : تنسب لحسان أشياء لا تصح عنه . [٣] الجفنة : القصعة الكبيرة .
[٤] انتبه بعض النقاد إلى فساد هذا النقد المروي في أكثر كتب الأدب . قال قدامة ابن جعفر في كتابه « نقد الشعر » : على أن من أنعم النظر علم أن هذا الرد على حسان =

وما يرويه هؤلاء النافذون المصوم قول أبي حاتم : تأتي الحسان أشعار
لينة ، وقول الأصمعي مرة : الشعر فكذب يقوى في الشر ويسهل ؛ فإذا
دخل في الخير ضعف ولان . هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء
الإسلام سقط شعره . وكأنهم أرادوا دعم كل هذه الأقوال فذكروا عن
حسان نفسه أنه قيل له : لأن شعرك يا أبا الحسام فقال : إن الإسلام
ليحجز عن الكذب وإن الشعر ليزينه الكذب .

فالنقاد إذن في شعر حسان فئتان متباعدتان : فئة تنهيه بالقصيد ،
وفئة تنظر إليه نظرتها إلى شاعر فحل كبير . ونحن لا نستطيع أن نتجاوز
لفريق دون فريق أو نفضل رأياً على رأي ، أو نعرف للشاعر قدره إلا بعد
أن ندرس شعره .

== من النابتة كان أو من غيره ، خطأ ؛ وأن حسناً مصيب . فمن ذلك أن حسناً لم يرد بقوله
(الفر) أن يجعل الجفان بيضاً لكن (المشهورات) كما يقال : يوم أغمر ويد غمر أو الخ . . .
وروى صاحب الأغانى (ج ٨ ص ١٨٦) . أن أحد الأنصار كان يأتي الفرزدق ويسأله
هل يحسن أن يقول (لنا الجففات الفر)) ويذكر الآيات مفاخرأ . وقال الأستاذ
طه أحمد إبراهيم في كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٩) : أما أن يسأل
حسان عن بيت القصيد في كلامه فيجب بأنه (لنا الجففات الفر . . .) فينهال النابتة أو تنهال
الخنساء طمناً على البيت وتجريحاً له على النحو الوارد في بعض الكتب فذلك ما لا يستطيع
باحث جاد أن يؤمن به .

دراسة شعر حسان

ألف حسان بلهنية العيش ولذة النعيم منذ حدثته فأحب الحياة حباً جما .
أحب منها ناحيتها الرخوة اللاهية ، وأشبع النفس من مباحيها وملذاتها ،
فصبا وغازل القيان ، وجدَّ وأشعر قلبه فتنة الغرام ، وشرب الراح مع
الندمان ، بين الآس والياسمين والرياحات . وتغنى بهذه الحياة الباسمة ،
في شعره فتغزل ونعت الخمرة ووصف مجالس اللهو والشراب .

وعنت له ، في أسفاره ، المناظر الشعرية المختلفة : مناظر اطلال
الأحبة الهامدة ، والسماء الصاخبة الباكية ، والناقة المسرعة تقطع به المهامة ،
فوصفها الوصف الدقيق المفصل .

وكان زهو الفطري وتيهه العظيم بآثر اجداده يدفعانه إلى الافتخار
دفعاً ، في كل ملابسة ، وكل حين ، كما كانت حروب قومه الخزرج مع
الأوس ، وإخوانه المسلمين مع المشركين تضطروه إلى ضروب الهجاء .
ولقد أحب حسان الرسول وملوك غسان وأمرأها وكثيراً من أفاضل الناس
فمدحهم ، وشهد وفاة بعضهم ومصرع بعضهم الآخر بأمر عينه فبكاهم ما أسعده
الدمع ، وراثهم ما انقاد له الرثاء .

لذا كانت أشهر الأغراض التي قال فيها الشعر : الغزل ونعت الخمر ووصف
مجالس اللهو والغناء ، والمشاهد الشعرية المتنوعة ، والفخر والهجاء والمدح والرثاء .

الغزل

أحب حسان المرأة لأنوثتها ولأنها ، في المجالس اللاهية ، كالشمس في
الأيام الجميلة الصاحبة ، لا بد منها . فتغزل بها في مطالع قصائده وأوساطها
غزلاً فيه صباة وفيه رقة

أَنْضِرَ ! مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ صِرْمٌ ، وَمَا أَحْدَثُ مِنْ هَجَرٍ ^(١)
 جُودِي ! فَإِنَّ الْجُودَ مَكْرُمَةٌ وَأَجْزِي الْحَسَامَ بِيَعُضَ مَا يَفْرِي ! ^(٢)
 وَحَلَفْتُ : لَا أَنْسَاكُمْ أَبَدًا مَارَدَ طَرْفِ الْعَيْنِ ذُو شُفْرِ ^(٣)
 وَحَلَفْتُ لَا أَنْسَى حَدِيثَكَ مَا ذَكَرَ الْغَوِي لَذَاذَةَ الْخَمْرِ ^(٤)
 وَلَا أَنْتَرُ أَحْسَنُ - إِذْ بَرَزْتُ لَنَا يَوْمَ الْخُرُوجِ بِسَاحَةِ الْقَصْرِ
 مِنْ دُرُقٍ أَعْلَى الْمُلُوكِ بِهَا مِمَّا تَرَبَّ حَائِرُ الْبَحْرِ ^(٥)
 وَفِيهِ أحيانًا وَصَفَ حَسْبِي وَاسْتِجَابَةَ لِلْجَسَدِ :

هَمَّهَا الْعَطَرُ وَالْفَرَّاشُ وَبَعَلُو هَا الْجَيْنَ وَلَوْلُو مَنْظُومٍ ^(٦)
 لَوْ يَدْبُ الْحَوْلِي مِنْ وَلَدِ الذَّرِّ رِ عَلَيْهِمَا لَا تُدْبِنُهُ السُّكُومُ ^(٧)
 لَمْ تَفْقَهَا شَمْسُ النَّهَارِ بِشَيْءٍ غَيْرَ أَنَّ الشَّبَابَ لَيْسَ بِدُومٍ ^(٨)
 وَكَأَنَّ شَعَثَاءَ ^(٩) هِيَ الَّتِي مَلَكَتْ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَأَشْعَلَتْ نَارَ الصَّبَابَةِ فِي قَلْبِهِ ؛
 فَأَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهَا ، وَاتَّخَذَ فِي مَخَاطِبَتِهَا لُحْجَةَ الصَّدَقِ وَالْإِخْلَاصِ وَالشُّوقِ :
 إِنِّي ، وَرَبِّ الْخَيْسَاتِ وَمَا يَقْطَعُنَ مِنْ كُلِّ مَرْجٍ جَدَدٍ ^(١٠)
 مَا حُلْتُ عَنْ خَيْرِ مَا عَهَدْتُ وَلَا أَحْبَبْتُ حَيَّ إِيَّاكَ مِنْ أَحَدٍ ^(١١)
 لَكِنَّمَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَمْلَأَ وَحْدَهَا قَلْبَهُ فَأَحْبَ غَيْرَهَا أَيْضًا حَبًّا جَدِيدًا
 وَخَاطَبَهَا خُطَابَ الصَّدَقِ وَالْوَجْدِ وَالْبَقَاءِ عَلَى الْعَهْدِ :

[١] الصِرْمُ : قِطْعُ الْوَدِّ • [٢] يَفْرِي : يَقْطَعُ بِمِ وَهَذَا : يَعْمَلُ • وَالْحَسَامُ لِسَانُهُ •
 يَقُولُ : كَافَقْتِي لِسَانِي بِيَعُضَ مَا يَقُولُ فِي مَدْحِكَ • [٣] الشُّفْرُ : مُنْبَتُ شَعْرِ الْجَفْنِ • وَالْمُنْبَتُ :
 مَا أَطْبَقَ الْجَفْنُ الْعَيْنَ • [٤] الْغَوِي : الضَّالُّ الْمُنْقَادُ لِلْهَوَى • [٥] أَعْلَى الرَّجْلِ الشَّيْءُ :
 بَعْضُهُ غَالِيًا • وَتَرَبَّ الرَّجُلُ ابْنَهُ : رَبَّاهُ وَتَعَهَّدَ • وَالْحَائِرُ : الْمَمْتَلِي • وَالْحَائِرُ هَاهُنَا فَاعِلٌ
 تَرَبَّ • وَالْأَبْيَاتُ فِي الدِّيَوَانِ ص ١٧٥ • [٦] اللَّجَيْنِ : الْفُضَّةُ • [٧] الْحَوْلِي : الَّذِي
 لَيْسَ عَلَيْهِ حَوْلٌ • وَالذَّرُّ : النَّمْلُ • وَالسُّكُومُ : الْجِرَاحُ • وَأَنْدَبُ الْجِرَاحِ الْجَسْمُ : أَثَرُ فِيهِ •
 [٨] الدِّيَوَانُ ص ١٧٥ • [٩] قِيلَ إِنَّهَا يَهُودِيَّةٌ • وَقِيلَ : بَلْ مِنْ خِزَاعَةٍ • وَقِيلَ إِنَّهُ
 زَوْجُهَا وَوُلِدَتْ لَهُ • [١٠] الْخَيْسَاتُ : الْأَيْلُ الْمَذَلَّةُ ، وَالسَّرْبَتُخُ : الْأَرْضُ الْمُضَلَّةُ ،
 وَالْجَدَدُ : الْأَرْضُ الْغَلِيظَةُ • [١١] الدِّيَوَانُ ص ١١١ •

فإن نك إيلي قد نأتك ديارها وضنت بحاجات الفؤاد المنيم^(١)
 فما حبها بالث عندى ولا الذى بغيره نأى ، وإن لم تكلم^(٢)
 ولا ضقت ذرعاً بالهوى إذ ضمنته ولا كُظَّ صدري بالحديث الممكن^(٣)
 ولا يستغرب هذا من حسان ؛ فالنقى الذى بألف عشرة اللاهيات المغربيات ،
 والمغنيات المنشيات لا يقيم على حب واحدة منهن حيناً حتى ينقلب عنها إلى
 غيرها لينعم بفرحة التجديد ، ولذة التبدل :

رُبَّ لهُوٍ شهدته ، أمَّ عمرو ! بين بيضٍ نواعمٍ في الرباط^(٤)
 مع ندامى بيض الوجوه كرام . نهبوا بعد خفقة الأشراف^(٥)
 لكيت . كأنها دمٌ جوف . عتقت من سلافه الأنباط^(٦)
 فاحتواها فتى يهين لها الما ل ونادمت صالح بن علاط^(٧)
 ظل حولي قِيَانَهُ عازفاتٍ مثل آدم كوانس وعواط^(٨)
 طفن بالكأس بين شرب كرام مهدوا حرَّ صالح الأنطاط^(٩)
 ساعةً ثم قال : هن بدادٌ بينكم ، غير مسمعة الاختلاط^(١٠)
 فاذا لم يكن حسان صادقاً في حبه لشعناء فلقد كان صادقاً في حبه لكل

- [١] نأتك : بدت عنك ، ضنت : بخلت ، والمنيم : الذى يروح به الهوى وأضناه .
 [٢] الحبل : الصلة المجازية : والرت : البالي ، والنأى : البعد ، وأصل تكلم : تسكلم .
 [٣] ضاق بالأمر ذرعاً : لم يقدر عليه ، وكظ الصدر بالحديث : امتلاً حتى لا يطيق
 السكمان . والآيات في الديوان ص ٣٩٦ . [٤] الرباطة جمع ربطة وهي التوب الأبيض
 الرقيق . [٥] الأشراف : نجوم في السماء ، وخفقتها : غياها . وربما كان معنى الأشراف
 هنا : الارذال وأن نداماء الكرام نهبوا بعد غياهم . [٦] الكيت الحجرة الضاربة حمرتها
 إلى سواد ، والسلافة : الحمر ، والأنباط : قوم سكنوا الشام . [٧] صالح بن علاط من
 رؤساء سليم . [٨] الأدم : الظبا . والكوانس : المستمرة تحت الأغصان ، والعواطى :
 الرافعات أيدين لتناول الأغصان . [٩] العرب : الشاربون ، والأنطاط : بسط لها خمل
 رقيق . [١٠] بداد : موزعات مقسمات ، والاختلاط : فساد العقل من السكر ، يقول :
 وزَّع ابن علاط قِيَانَهُ على نداماد ولم يختلط عقله . والآيات في الديوان ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

الفساء ، إذ هن في عينيه كالخمرة ، متعة من متع اللهو ، وباعت من بواعث
السرور ، بل كثيراً ما كان بفضل الخمرة عليهن ، فلا يكاد يصل ، في نعت
محبوبته ، إلى وصف الربق وتشبيهه بالرحيق ^(١) حتى يترك التغزل إلى الخمرة
ليمدحها وبطيل :

فدع هذا ! ولكن من لطيف
لشعشاء التي قد تيمته
كأن سبيئة من بيت رأس
على أنيابها أو طعم غَضْ
إذا ما الأشربات ذكرن يوماً
نوايها الملامة إن ألمنا
ونشربها فتدركنا ملوكاً
وأسداً ، ما يشبهنا اللقاء ^(٢)
وما كانت شعشاء على دَلَمَا وجمالها لقلبي عن الكأس وإدامة السكر :
تقول شعشاء لو تُفَيِّق من الـ كَأْسٍ لَأُفَيِّتَ مُثَرِّيَ العدد ^(٣)
أهوى حديث الندمان في فلق الـ صبح وصوت المسامر الغرد ^(٤)
ولقد بلغ حظها منه ، في النهاية ، مبلغاً لا تحسدها عليه النساء :
فأني تلاقيتها إذا حلَّ أهلها بوادي يمانٍ من غفارٍ وأسلما ^(٥)
سأهدي لها في كل عامٍ قصيدةً وأقعدُ مكفياً بيثرب مكرماً ^(٦)

(١) الرحيق : الخمر . (٢) يؤرقني : يذهب عني النوم . (٣) السبيئة : الخمر ،
وبيت رأس : بلد . (٤) هصره : كسره وعصره ، والجناء : جني الفواكه وقطفها .
(٥) الراح الخمر . (٦) ألام الرجل : وقع في اللوم ، والمفت : الفر ، والاحاء : السباب
(٧) نهذه اللقاء : زجره ورده . والآيات في الديوان ص ٣ - ٤ . (٨) ألفى : وجد
(٩) اللديم : الرفيق المسامر في الشرب ، والمسامر : المحدث المسلمي في الليل ، والغرد : المغني
والآيات في الديوان ص ١١٢ . (١٠) غفار بن مليل بن كنانة : رهط أبي ذر الغفاري .
وأسلم بن أقصى بن حارثة من خزاعة . (١١) المكفي : من عنده الكفاية من حاجاته .
والبيتان في الديوان ص ٣٦٩ .

ومها بكن من أمر؛ فلقد كان تعلق حسان بالنساء شديداً شدة تعلقه
 بحياة الخفض والنعم . فلا غرابة إذن أن نسمع في شعره ، عند تذكره
 أصويحياته ، في الجاهلية والإسلام^(١) رنة الحنين الصادق إلى العهود الماضية
 والآفاق البعيدة ، ولا غرابة أيضاً أن نفهم غزله بذكر الأماكن الكثيرة
 التي هي كل ما بقي لعينيه من تلك الأيام السعيدة والصور اللطاف :
 قد تعنى بعدنا عاذبُ ما به بادٍ ولا قارب^(٢)
 غلته الريح نسفي به وهزيم رعدة واصب^(٣)
 ولقد كانت تكون به طفلة مكورة كاعب^(٤)
 وكلت قاي بذكرتها فالهوى لي فادح غالب^(٥)
 لبس لي منها مؤاس ولا بد مما يجلب الجالب^(٦)
 وكأني حين أذكرها من حميا قهوة شارب^(٧)
 أكمهدي غضب ذي نفر ؟ فلوى الأعراف فالضارب^(٨)
 فلوى الخربة ، إذ أهلكنا كل ممسي ، سامر لاعب
 لم تكن سعدى لنصفي قلما بنصفي الصاحب
 فابك ما شئت على ما انقضى كل وصل منقض ذاهب
 لو يرد الدمع شيئاً لقد ردت شيئاً دمعك الساكب^(٩)

(١) الجار والمجرور متعلق بتذكره . (٢) تقفى المكان : غفا ودرس . وعاذب : اسم
 موضع . والبادي : الذهاب للبادية . والقارب : القادم . (٣) سفت الريح التراب حملته
 وذرة . والهزيم : المطر المنهمر . والواصب : الدائم . (٤) الطفلة : الناعمة . والمكورة :
 المدبجة الحلق ، المعجبة القوام . والسكايب : الفتاة في أول عهد الشباب . (٥) الذكرة :
 الذكرى . والفادح : المرهق ثقله . (٦) المؤاسي : المسلمي والمعزي . والجالب : هنا القدر
 ولا بد مما يأتي به القدر . (٧) الحميا : سورة الشراب وديبه الحار في العروق . والقهوة :
 الحمر . (٨) ذو نفر ولوى الأعراف والضارب ولوى الحمر : مواضع . (٩) الأبيات
 في الديوان ص ٣٤ — ٣٦ وغزل حسان في الصفحات : ٢ — ٣٨٤ — ١٨٤٣ — ٣٥٤٢١ —
 ٣٦٤١٠ — ١١٢٤١٢ — ١٧٥٤١٧٧ — ١٩٨٤١٩٩ — ٢٣٤٤٣٥ — ٢٧٢٤٢٨٤ — ٣١٣٤٣٦
 ٣٦٢٤٣٦٩ — ٣٧٦٤٣٧٧ — ٣٨٠٤٣٨١ — ٣٨٨٤٣٨٩ — ٣٩٢٤٣٩٤ — ٤١٥٤٤١٤ — ٤١٥٤٤١٥

نعت الخمر

افتتن حسان بالخمرة لأنها من متطلبات حياة اللهو والمرح ، فوصفها
دقيق الوصف ، ومجدها شيق التمجيد ، وافتن في وصف أثرها في الأجساد
وفي النفوس :

كأن فاما ثقب بارد^(١) في رصف تحت ظلال الغمام^(١)
شجت بصياء لها صورة من بيت رأس عمت في الخيام^(٢)
عقها الخانوت دهرأ فقد من عليها قرط عام فعام^(٣)
نشر بها صرفاً ومزوجة ثم نغني في بيوت الرخام^(٤)
تدب في الجسم ديبكاً كما دب ديباً وسط رفاق هيام^(٥)
كأساً إذا ما الشيخ والى بها خمساً تردى بداء الغلام
من خمر بيسان تخيرتها ترياقاً تسرع فتر العظام^(٦)
يسمى بها أحمراً ذو بونس محلق الذفرى شديد الحزام^(٧)
أروع للدعوة مستعجل لم يشه الشان ، خفيف القيام^(٨)
وأحبها حباً مفوطاً لأنها تخلق شاربها خلقاً جديداً ، وتعيد الخامل
البخيل رجلاً حياً كريماً (! ؟)

- (١) الثقب : القدير البارد بين الظلال ، لاصبيه الشمس . والرصف : الحجارة المتراصة .
(٢) شجت : مزجت . والصياء : الخمر . والسورة : الحدّة والفوران . وبيت رأس : موضع .
(٣) الخانوت : دكان بائع الخمر . والقرط : مجاوزه الحد . (٤) الصرف : التي لم تخرج
بالماء . (٥) الدبى : الجراد . والرفاق : الأرض المنبسطة اللينة التراب . والهيام :
ما لا يتناسك من الرمل . (٦) بيسان موضع في فلسطين . والترياق : الخمر . والترياق في
الأصل : الدواء ضد السموم . وفترت النظام فترا : لانت مفاصلها . (٧) أحمراً : غلام
غدير عربي . والمحلق : الذي في أذنه حلقة . والذفرى : العظم الذي خلف الأذن ، وهنا
الأذن . (٨) الأروع : الذكي . والشان : الأمر أو الحال . أو لعله مفرد (شؤون
الخمرة) وهي ما دب منها في عروق الجسد . والأبيات في الديوان ص ٣٨١ .

ومستغرق النخامة مستكين لوقع الكاس مختلس البيان^(١)

حلفت له بما حجت فريش^(٢) وكل مشعشع م الخمر آن^(٣)

لنصطحبن وإن أعرضت عنها ولو أني بجيبته سقاني^(٤)

فطافت طوفتين ، فقال : زدني ودبت في الأخادع والبنان^(٥)

فلم أعرف أخي حتى اصططحنا ثلاثاً ، فانبهرى خذيم العنان^(٦)

فلان الصوت فانبسطت بداه وكان كأنه في الغل عان^(٧)

وراح ، ثيابه الأولى سواها بلا بيع (أميم) ولا مهان^(٨)

وزاده بها شغفاً أنها كانت تحقق له ، في عالم الوم والخيال كل الأمان

والرغائب التي عجز عن تحقيقها واقع الحياة :

ونشر بها فتتر كنا ملوكاً وأسدأ ما ينهنها اللقاء^(٩)

وقد بلغ من تعلقه بها انه كان إذا صحا من سكره يرى الحياة

شبيهة بالموت :

ومسك بهداع الرأس من سكر نادته ، وهو مغلوب ، ففداني^(١٠)

لما صحا وتراخى العيش قات له إن الحياة وإن الموت مثلان^(١١)

(١) النخامة : ما يدفعه الإنسان من صدره . ومستغرقها : مخفيها . يريد أنه جاف الخلق .

والمستكين : الخاضع الدليل . والمختلس البيان : العاثر عن الإفصاح عما يريد . وقد كانت

كل هذه الصفات لنديه ، قبل الشرب . (٢) المشعشع : المزوج . والآني : الحاضر للمها .

(٣) اصططح : شرب الخمر صباحاً . والحمية : الحالة . يقول : لو كنت بحالته المحزنة لسقاني .

(٤) الأخادع : عروق في الرقبة . والبنان : الأصابع . فردها : بنانة . (٥) انبرى :

بدا . خذيم العنان : ينقطع الزمام طليق يفعل ما يشاء . (٦) القيد : القيد . والعاني :

الأسير . (٧) أي وهب ثيابه الخارجية ولم يتركها لبيع أو إهانة والآيات في الديوان

من ٢١١ — ٢١٢ . (٨) الديوان من ٢ . (٩) الصداق : ألم الرأس ودؤاره .

والمغلوب : من غلبته الحرة . وفداني : أجنبي قائلاً : فذلك نفسي . (١٠) تراخى العيش :

ضعف وقر (لترك السكر) .

فاشرب من الخمر ما آتاك مشربه واعلم بأن كل عيش صالح فان^(١)
ولعله كان يرى في شربها رمزاً لتمسكته ورفقته ، وفارقاً يميزه من هؤلاء
الأعراب الذين يشربون اللبن وأولئك الذين لم يألفوا منادمة الطبقة الرفيعة ،
ولم يتعودوا صحبة الأماجد الكرام (؟)

لا أخذش الخدش بالنديم ولا يخشي جلبسي إذا انقشبتُ بدي^(٢)
ولا نديمي العض البخيل ولا يخاف جاري ما عشتُ من وبدي^(٣)

* * *

إني حلفتُ يميناً غير كاذبة لو كان للحارث الجفني أصحاب^(٤)
من جند غسان مسترخ حائلهم لا يُغبقون من المعزى إذا أبوا^(٥)
ولا يُذادون محمراً عيونهم إذا تُخضر عند الماجد الباب^(٦)
كانوا إذا حضروا شيب العقار لهم وطيف فيهم بأكواس وأكواب^(٧)

الوصف

الطبيعة غالبة مفتانة ؛ همها ان يتحدث عنها الناس ؛ وهي ، لعجزها عن
النطق ، تستهوي النفوس الشاعرات بمنظرها الجذابة ، وصورها الآسرة ،
وتجبرها على الكلام بأسانها ، والإشادة بذكورها والتغني بمحاسنها .

- (١) آتاك : وافقك ، والآيات في الديوان ص ٢١٢ — ٢١٣ . (٢) انقشيت : سكر .
(٣) العض : السي - الخلق . والوبد : اليب وسوء الحال . والبيتان في الديوان ص ١١٢ .
ونمت الحجرة في الصفحات : ٣ — ٢ ، ٣٠ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ٢٣٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٣ .
٣٨١ — ٣٨٢ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ — ٢١٤ . (٤) يرثي حسان الملك الفسائي
الحارث بن أبي شمر الذي قتل في حرب كانت بينه وبين المناذرة . (٥) الجندم : الأصل .
واسترخاء حائل السيف : كناية عن العزة . لا يُغبقون : لا يُسقون مساءً . وآبوا : عادوا
ورجعوا إلى منازلهم . (٦) يُذادون : يُدفعون ويُطردون . محمراً عيونهم : كناية عن
غضبهم من الطرد . وتخضر : حضر ، والفعل هنا مبني للمجهول . (٧) شيب : مزج .
والعقار : الخمر . والكوب وجمها أكواب : القدح لاعروة له . وفي القافية أقواد .

ومن غريب النفس الإنسانية الموهبة أن يهتز فيها حس الجمال لكل هذه المشاهد : سواء فيها الممتع والموجع ، والضاحك والعايب ، والصاحب والصامت ، والمشرق والرائع .

ولقد عرض لحسان ، في رحلاته الكثيرة المتصلة ، كثير من هذه الصور التي حرّكت في قلبه أوتار الفن وغمرته بروعة الجمال . لكنه لم يصف منها ، في شعره ، إلا التي حملته عليها المناسبات .

أشهر هذه المناسبات الغزل . فلقد حمل على التأنيق في وصف الأطلال ومخاطبتها ، ووصف المطر التي جادت عليها وسقتها ، ووصف رحيل القوم ، من بعد ذلك ، إلى المشى وما خلف في قلبه من ألم ولوعة ، ووصف الليل الطويل البطيء النجوم :

- ١- لقد هاج نفسك أشجانها وعادوها اليوم أديانها^(١)
تذكرت ليلى وأنى لها إذا قطعت منك أقرانها^(٢)
وحجّل في الدار غربانها وخف من الدار سكانها^(٣)
وغديرها معصرات الريا ح وسح الجنوب وتمتاتها^(٤)
مهة من العين تمشي بها وتبعها ثم غزلانها^(٥)
وقفت عليها فساءلها وقد ظعن الحى ، ما شأنها^(٦)
فعبت وجاوبني دونها بما راع قلبي أعوانها^(٧)

* * *

٢- وإذ هي حوراء المدامع تترعى بمنذفع الوادي أراكاً منظماً^(٨)

- (١) الدين هنا : العادة . والجمع أديان . (٢) الأقران جمع قرن : وهو الجبل .
(٣) حجّل : سار كالجمل . وخفّ : ارتحل مسرعاً . (٤) المعصرات : الرياح التي تأتي بالأمصار . والتهتان : التهاطل وتزول المطر . (٥) المهاة : البقرة الوحشية . والعين : بقرة الوحش . (٦) ظعن : رحل . (٧) عبت : عجزت عن الكلام . وراع : أخاف .
والأنيات في الديوان ص خ — م . قالها حسان لما أبصر محبوبته في دارها مع أنراها ، وقد ظعن قوماً (٨) حور العين : شدة بياض بياضها . وشدة سواد سوادها . ومنذفع الوادي : حيث يندفع السيل . والأراك : شجر . والمنظم : المنتظم في خطوط .

أقامت به بالصيف حتى بدا لها
وقد أل من أعضاده ودنا له
تحن مطافيل الرباع خلاله
وكاد بأكناف العقيق ويده
فلما علا تربان وإنهل ودقه
وأصبح منه كل مدفع تلعة
تنادوا بليل فاستقلت حملهم
وأيقنت لما قوَّض الحي خيمهم
وأسمعك الداعي الفصيح بفرقة
وبين في صوت الغراب اغترابهم
وفي الطير بالعلياء إذ عرضت لنا
وكدت غداة البين بغلابي الهوى

نشاص^(١) ، إذا هبت له الريح أرزما^(٢)
من الأرض دان جوزة فتحة^(٣)
إذا استن في حافاته البرق أنجبا^(٤)
يحط من الجماء ركنًا ملسملا^(٥)
تداعي وألقى بوقه وتهزما^(٦)
يكب الأعضاء سيلة ما تصرما^(٧)
وعالين أنماط الدّر قل المرقما^(٨)
بروعات بين تترك الرأس أشيبا^(٩)
وقد جنحت شمس النهار لتغربا^(١٠)
عشية أوفى غصن بان فطربا^(١١)
وما الطير إلا أن تمر وتنعبا^(١٢)
أعاج نفسي أن أقوم فأركبا^(١٣)

(١) النشاص: السحاب • وأرزما: أرعد • (٢) أل: برق • والأعضاء: النواحي •
والجوز: الوسط • وتحنم: رد الصوت • (٣) المطافيل: الأبل معها صفارها • والرباع
جمع ربم: وهو الفصيل يلتج في الربيع • استن: خفق واضطرب • وأنجم: سال •
(٤) الكنف: الجانب وجهه أكناف • والعقيق: وادٍ يثرب • والويد: الضوت الشديد
والجماء: موضع في المدينة • والململم: المستدير المجموع بعضه إلى بعض • (٥) تربان: موضع
والودّي: المطر • وتداعي: تصدّع وانحل • وتهزم الرعد: صوّت • (٦) التلعة:
ما ارتفع من الأرض • والأعضاء: ما عظم من شجر الشوك • وتصرم: انقطع • (٧) استقلت
حملهم: رحلوا • والأنماط: الأنواع • والدّر قل: نوع من الثياب • والمرقم: الموشى
والأبيات في الديوان ص ٣٦٧ — ٣٦٨ • (٨) قوَّض: هدأ • والروعة: الخوف •
والبين: الفراق • (٩) الداعي: المنادي • وجنحت: مالت • (١٠) أوفى: أتى •
وطرب: نعب • (١١) تنعب: تصوّت كالغراب • (١٢) غداة البين: صباح الفرقة •
والأبيات في الديوان ص: ١٩ •

٤ - نطاول بالحنان ليلي فلم تكن تهم هوادي نجمه أن تصوباً^(١)
 أبيت أراعيها كأني موكلٌ بها ، لا أربد النوم حتى تغيباً^(٢)
 إذا غار منها كوكب بعد كوكب تراقب عيني آخر الليل كو كبا^(٣)
 غوائر تترى من نجوم تخالها مع الصبح تلوها زواحف لغبا^(٤)
 ومن المناسبات التي حملت حسان على الوصف أيضاً ذكرها لحياة النعيم التي
 أحبها وعشقها ، فكأنه خاف عليها أردبة الماضي الثقيلة ، ووديان النسيان السحيقة ،
 فسعى في صوغها في الفاظ ، وتجميدها في عبارات ، وتخليدها رغم أنف الزمان .
 هذه الذكري هي التي دعتني إلى وصف خروجه للصيد (الديوان ص ٢٣٦ - ٢٣٧)
 ونعيم يثرب ومياها وأشجارها ، وعيد الفصح في قصور الغساسنة :

١ - لنا حرةٌ ماطورةٌ يجيهاها بنى المجد فيها بيته فتأهلاً^(٥)
 بها النخلُ والآطام تجري خلالها جدول قد تعلو رُفقا جرولاً^(٦)
 إذا جدولٌ منها نصرتم مأوه وصلنا إليه بالنواضح جدولا^(٧)
 على كل مفهاقٍ خسيفٍ غروبها تفرغ في حوضٍ من الصخر أنجلاً^(٨)
 له غلل في ظل كل حدبقةٍ يُعارضُ بعبوباً من الماء سلسلاً^(٩)

(١) الحنان : موضع • وهوادي النجوم : أوائلها • تصوب : تنحدر وتغرب • (٢) أصلها
 تغيب • (٣) غار : غاب • (٤) جم الغائر غوائر • والزواحف : الأفاعيل • واللاغب :
 الشديد التعب والجهد : لغب • والأبيات في الديوان ص ١٨ • (٥) الحرة : الأرض ذات
 الحجارة الكثيرة السوداء • والماطورة : المحوطة • وتأهل : اتخذ أهلاً • (٦) الآطام ،
 الحصون ، مفرداتها ، أطم • والرفاق ، الأرض المستوية • والجرول ، الموضع الكثير الحجارة
 (٧) النواضح ، الأبل التي يُستقى عليها واحدتها ناضح • (٨) المفهاق ، البئر الكثيرة الماء •
 والخسيف ، البئر تُحفر في الحجارة فلا ينقطع مأوها • والغرب ، الدلو العظيمة • والأنجل ،
 الواسم • (٩) الغلل ، الماء الذي يجري بين الأشجار • والعبوب ، النهر الشديد الجري
 والسلسل ، الجاري • والقصيد في الديوان ص ٣٥٣ - ٣٥٤ •

٢- قد دنا الفصح فالولائد ينظمه نَ مِراعاً أكلة المرجان^(١)
 يجتنبين الجادي في ثقب الرية ط عليها مجاسد الكتان^(٢)
 لم يعلن بالمغافر والصم غ ولا تقف حنظل الشريان^(٣)
 ذاك مغنى من آل جفنة في الدهر ر، وحق تعاقب الأزمان^(٤)
 وكان الفخر أيضاً من جملة المناسبات التي طرقت لحسان إلى الوصف .
 فهو الذي دعاه إلى وصف شعره وبين أثره في الناس ؛ وهو الذي جعله يطيل
 في نهت نعيم يثرب الذي سبق ذكره ، وبعيده في القصائد الأخرى :

لكل أناس ميسم يعرفونه وميسمنا فينا القوافي الأوابد^(٥)
 متى ما نسم لا ينكر الناس ومسمنا ونعرف به المجهول ممن نكابد^(٦)
 تلوح به ، تعشو إليه وسومنا كما لاح في سمر المئان الموارد^(٧)
 فيشفين من لا يستطيع شفاؤه وبقين ما تبقى الجبال الخوالد
 ويشقين من يغتالنا بعداوة ويسعدن في الدنيا بنامن نساعد
 إذا ما كسرتنا رمح رابة شاعر يحيش بنا ما عندنا فنعاد^(٨)
 كان حسان قادراً على الوصف وعلى النظرة الصائبة التي تقع من الصورة على
 الخطوط الرئيسة والإشارات الدوال . إلا أن هذه الخطوط والإشارات لا ترد

-
- (١) الولائد جمع وليدة : وهي الجارية الصغيرة الحسنة . والأكلة جمع إكليل .
 (٢) الجادي : الرعفران . والثقب جمع ثقبه : وهي ثوب كالإزار يشد كما تشد السراويل .
 والريط : الثياب اللينة . والمجاسد جمع مجسد : وهو القميص . (٣) علاه : شغله ولهاه .
 والمغافر جمع مغفور : وهو صمغ يسيل من النمام . وتقف الحنظل : كسره لاستخراج ما فيه .
 والشريان : شجر . (٤) المنفى : المنزل . والأبيات في الديوان ص ٢١٥ .
 (٥) الميسم : أداة الوسم أو أثره . والقوافي : القصائد . والأوابد : الخالدات .
 (٦) أي ندين من كابدناه ونحن لا نعرفه . (٧) تلوح : تظهر . وتعشو : تقصد .
 والمئان جمع مئتين : وهو المرتفع من الأرض . والوارد : الطرق . (٨) يحيش : يضطرب
 ويشور . والأبيات في الديوان ص ١١٨ — ١١٩ .

كلها في بعض الأحيان ، فأتاني الصورة محمية محبرة ، كما هو الأمر في صفة عيد النصح ، وقد تتعاقب هذه الصور كثيرةً سرّبعة ، فلا تكاد تتراءى ملامح الأولى حتى تتلوها الثانية التي لا تكاد ترسم حتى تطمسها الثالثة ثم تغشيها الرابعة وهكذا دواليك ؛ وينتهي القارىء من الوصف ولم تتكون في ذهنه صورة واضحة عن الموصوف ، ولم يرتو في نفسه هذا النعش الفني الذي أوجده تلك البدايات المغريات . ففي وصف المطر مثلاً يشرع في تصوير لمعة البرق من خلال السحب ؛ وقبل أن يروي غلة القارىء ، ينتقل الى وصف أهذاب الغيوم ، ليظهر منها طغراً الى ذكر اسوداد لونها ، ثم لبشبهه ، من بعد ذلك ، صوت الرعود بمجنين المطافيل ؛ ولا يكاد يشرع في خطه هذا التشبيه الجميل حتى يتذكر ليقول إن انصباب الغيث يتلو خفقة البروق .

وقد يبدأ حسان التصوير بنفحة شعربة رائعة ، ثم لا يسير فيه قليلاً حتى يخمد هذا النفس القوي ، وتغيب تلك الرنة الموسيقية الفخمة ، فيظل أبتر فاسداً لا تُغني فيه الخطوط المضطربة والصور الضعيفة التي جعلت لتمامه :

- ١ - ونحن ، إذا ما الحربُ حلَّ صرارها وجادت على الحُلاب بالموت والدم^(١)
ولم يُرج إلا كل أروع ماجدٍ شديد القوى ذي عزة ونكرم
نكون زمام القائدين إلى الوغى إذا الفشل الرعيد لم يتقدم^(٢)
والفشل الرعيد لا يتقدم في معركة ، بالغة ما بالغت من السهولة وضعف
الشان . أنهم في مثلها يكون وقومه إلى الوغى قائدين ؟
٢ - وإنا إذا ما الألق أمسى كأنما على حافتيه ، مسمياً ، لونٌ عندم^(٣)
أنطعم في المشقى ونطعن بالقنا إذا الحربُ عادت كالحرّيق المضرم^(٤)

(١) الصرار : خيط يُشدُّ فوق خلف الناقة لثلاث يرصعها ولدها . (٢) الديوان ص ٣٩٦
(٣) العندم : صبغ أحمر . (٤) الديوان ص ٣٩٦

شرع يصف يومَ الجذب ليدكر جود قومه فيه ^(١) فأحسن البداية ؛ ثم انقطع به النفس الشعري فتعجل في النهاية لينتقل إلى القنوبه بشجاعة قومه في حومات القتال ؛ فجاءت الصورة الأولى بتراء كاسفة ، وجاءت الثانية ناقصة لا تُرضي .

وهناك أمر أخير يُصعب علينا استساغة وصف حسان ، هو أن أكثر الألفاظ التي ترد فيه لم تعد مألوفاً في عصرنا ، وأن أغلبها ، إذا اجتمع بعضها إلى بعض ، لم ينشأ عنه تركيب منسجم وجرسٌ رخم :

- ١ — أقامت به بالصيف حق بدا لها نشاصٌ إذا هبت له الريح أرزما
وأصبح منه كل مدفع تلعة يكبّ العضاء ، سيلة ما نصرّما
- ٢ — وقال من قصيدة يصف فيها خروجه للصيد .

فتولى الغلام بقدرع مُهرأ تشقّ الغرب مانعاً للسياط ^(٢)
ثم والى بسمحج ونحوص وبعلج يكفّه بعلاط ^(٣)

والكي نثبت من كل ما تقدم عن مزاي وصف حسان ، يكفي أن نوازن بين قوله في وصف المطر وقول أوس بن حجر ، الممدود من أجل ما قيل في هذا الموضوع في الجاهلية ^(٤) ؛ فنجد وصف حسان أجمل وأصدق وأخصب ، ووصف أوس أظهر معنى وأوضح صورةً وأنصع ديباجةً وأجمل جرساً ^(٥) .

(١) طرق الفرزدق ، من بعده ، الموضوع نفسه ، في فائمه المشهورة ، فوصف يوم الجذب وصفاً دقيقاً جامعاً رائعاً في سبعة أبيات . راجع الديوان طبعة الصاوي ج ٢ ص ٥١١ .
(٢) يقدح : يميسك ويكف . وتشقّ الغرب : سريم الحدة ، نشيط . (٣) السمعج : الأتان الطويلة الظهر . والنحوص : الأتان السمينة . والعلج : حمار الوحش . يكفه : يمنعه من الجري . والعلاط : الطعن والرجم . والبيتان في الديوان ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .
(٤) تجدها في ديوان حسان بالهامش ص ٣٦٧ . (٥) الوصف في الديوان في الصفحات : خ م ١٨٦ ١٩٦ ١١٨٦ ١٦٨ — ١٧٤ ٢٣٦ — ٢٣٧ ، ٢٥٢ ، ٣٢٩ — ٣٥٠ ، ٣٥٣ — ٣٥٤ ، ٣٦٧ — ٣٦٨ ، ٣٧٣ ، ٣٩٣ — ٣٩٤ ، ٤١٥ .

الفخر

إن كانت طبيعة حسان الاجتماعية تدفعه إلى مجالس الأنس والمرح ،
فلقد كانت طبيعته الفطرية تجذبه إلى التبحر والافتخار ، وحب الفخر
غريزة قاهرة في نفس حسان^(١) بلغ من شدتها أنها ملأت شعره وظهرت في كل
غرض من أغراضه . فهو يفخر إذ يتغزل :

ولقد تجالسني فيمنعني ضيق الذراع وعلة الخفر^(٢)

وينعت الخمرة لأنه يظنها فارقاً يميزه وصحبه الكبراء من الأعراب
والعوام ، كما مرّ عند الكلام عن الخمر . ويصف أثر شعره في المهجورين
ومشاهد الطبيعة المتنوعة ، متى أتاح له الوصف فرصة الزهو والافتخار
كما تقدم في باب الوصف . وسنرى بعد أن نسخ الفخر هو الذي كان
يبحث في هجاء حسان ومدحه ورثائه طلاوة الجودة ورونق الحياة .
وزاد هذا الميل الفطوري للفخر قوة نسب كريم ومآثر خالدة ، وجاء عند
الملوك عظيم . ثم وجدت عوامل أخرى مؤاتية نمت هذا الميل وقوته ،
حتى أضحت سمة بارزة لنفس حسان .

أشهر هذه العوامل خموله في المعارك . ولا يستغرب هذا من شاعر
مولع بالحياة^(٣) ؛ وكأنه عيّر بهذا الخمول فنفاه عنه وافخر بقدرته على
الحروب ولا سيما حروب اللسان :

لعمري أليك الخير (يا شعث) ما نبا علي لساني في الخطوب ولا يدي^(٤)
لساني وسيفي صارمان كلاهما ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي^(٥)

- (١) لما هجاء قيس بن الخطيم شاعر الأوس أنهم بالدد والصيد (الديوان ص ١٥٥) .
والدد : شدة الخصومة : والصيد : الزهو والتهيه . (٢) الخفر : الحياة .
(٣) استفاد القرشيون ، حين كانوا يهاجونهم ، من هذا الأمر ، فبالغوا في اختلاق الروايات
المتنوعة عن جنبه . راجع أشهر هذه الروايات في الديوان في الصفحتين : ص ١٠١ و ١٠٢ .
(٤) نبا : لم يقطع . (٥) المذود : اللسان . والبيتان في الديوان ص ١٢٧ .

ومن هذه العوامل كثرة الخصوم . فلقد كان لشاعرنا في الجاهلية أعداء كثيرون . أبغضه بعضهم لقبيلته وعاداه بعضهم لتكبره وتبهه ؛ ولقد شكوا منهم حسانت في شعره :

وأن لم يزل لي، منذ أدركتُ، كاشحٌ^(١) عدوٌ أقاسيه وآخر حاسد^(٢)
فما منها إلا وأني أكيله بمثلِ له ، مثلين أو أنا زائد^(٣)

فكانه لم يأنس في نفسه القدرة على مصاولتهم ، فهجاهم قليلاً ثم اعتصم بالفخر ؛ وهل الفخر إلا ضرب من حروب الكلام ، يلتزم فيه جانب الدفاع ؟ ولقد ازداد عدد أولئك الخصوم في الإسلام . وملاً عليه القرشيون الآفاق شعراً فزادهم تبهاً ونحراً .

وفي الواقع ، لقد أمدَّ الإسلامُ نحرَ حسان بمادة لا ينضب لها معين . لقد كان قومه الأنصار أول من أعلَى شأن الدين ، ونصر سيد المرسلين ؛ ولم يكن لهم ، منذ دخلوا في دين الإسلام ، إلا الشأن المتعالي ، والأيام الغر ، والوفائع المشهورات . وهكذا جمع أبو عبد الرحمن عزَّ الحاضر إلى مجد الماضي فاختال على الناس وتاه .

زد على ذلك أن كانت أهاجي بعض القرشيين ، في ذلك العهد ، تنال من الأوس والخزرج ، دون سائر المسلمين^(٤) ؛ فكان شاعر الأنصار يدفع عنهم بالهجاء حينئذ ، وبالفخر في أكثر الأحيان .

(١) الكاشح : المبغض . (٢) البيتان في الديوان ص ١١٢ .

(٣) قال ضرار بن الخطاب من قصيدة في يوم بدر :

عجبتُ لفخر الأوس ، والحين دائر عليهم غداً والدر فيه بصائرُ
وفخر بني النجار أن كان معشر أصيبوا بيدٍ ؛ كلهم ، ثم ، صابر

« سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٧ ، طبع م . م . عبد الحميد » .

كان حسان يفخر بنفسه وبالأخزرج والأَنْصار . وكان إذا افتخر بنفسه وصفها بالشجاعة والكرم وانطلاق اللسان ووجود الناصر ، كمعادة الجاهليين ؛ وزاد صفات أخرى تكون له ، في حياته اليومية ، بين إخوانه ونداماه وبني قومه كاختياره للعُشراء وحبه للسمر والغناء ومكارمة من يكارمه ، وكتاتن من القبيلة وحفظ غيبها ومعادة أعدائها ، والحياء والعفة وقلة الكلام والصبر على كوارث الأيام :

- ١ - بأبى لي السيفُ واللسان وقو مٌ لم يُضاموا كلبدة الأسد
لا أخذش الخدش بالنديم ولا يخشى جلبي ، إذا انتشبتُ بدي
ولا نديمي العِضُّ البخيل ولا يخاف جاري ، ماعشتُ ، من وبدي^(١)
- ٢ - فلا المال يُنسيني حيائي وعفي ولا واقعاتُ الدهر بفلان مذودي
وإني ليدعوني الندى فأجيبه وأضرب بيضَ العارض المتوقد^(٢)
وإني لخلوة ، نعتدني سرارةً وإني لترك لما لم أعود^(٣)
- ٣ - فإما هلكتُ فلا تنكحي ظلومَ العشرة حسادها
وإني عاتبوه على مرةٍ ونابت مبيّةٌ زادها^(٤)
- ٤ - فإذا الحوادث ما تُضعفيني ولا يضيق بجاجي صدري
بُعبي سقاطي من هُوَازني إني لعمرك لستُ بالهذر^(٥)
إني أكارم من يكارمني وعلى المكاشح بفتحي ظفري
لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعري^(٦)

(١) الديوان ص ١١٢ . (٢) العارض : السحاب المطر . وباض السحاب بيضاً : أمطر بشدة . والمتوقد : الذي تلمع فيه البرق . ويض هنا : مفعول مطلق . (٣) الديوان ص ١٢٨ — ١٣٠ . (٤) المرة : الحالة . والمبيّة : المكيدة المدبرة ليلاً . زادها : هنا زادها شراً . والبيتان في الديوان ص ١٣٩ . (٥) السقاط : الزكة وهنا ، الهفوات أو أضعف الأشعار . والهذر : الثرثار . (٦) الديوان ص ١٧٢ .

• — ولا أصالح من عادوا وأخذلهم ولا أغيب لهم يوماً باقذاع^(١)
أما فخره بالخزرج فقد كان كفخر عامة الجاهليين تمدحاً بالأجداد
العظام ، والحسب الفاخر القاهر ، والكرم في الجذب والبطش في الحرب ،
وحمل النفس على المكاره وفك العنة ، وتسويد ذي المروءة المكلل بالجلال
ولو أعدم^(٢) ، والعدل في الحكم والترفع عن الخنا وردية الكلام .
ولا يتميز هذا الفخر من غيره من أقوال شعراء ذلك العصر إلا بهذا
الاندفاع الشديد الذي يلحمه القاري في كل بيت ، وهذا التلذذ بالافتخار
الذي يبلغ به ، أحياناً ، حد الإفراط والتهوتس^(٣) :

- ١ — جدي أبو لبلى ووالده عمرو ، وأخوالي بنو كعب
وأنا من القوم الذين إذا أزم الشقاء محالف الجذب^(٤)
أعطى ذوو الإحسان مفسرهم والضاربين بموطن الرعب^(٥)
٢ — فلو يصدقون لأنبؤكم بأننا ذوو الحسب القاهر
وأنا مساعير عند الوغى نرد شبا الأباخ الفاجر^(٦)
ورثتُ الفعّال وبذل التلا دِ والمجد عن كابر كابر^(٧)
وحمل الديات وفك العنا قِ والعز في الحسب الفاخر^(٨)
٣ — تشدّت بني الجار أفعال والذي إذا لم يجد عانٍ لهُ من هوارعه^(٩)
ألسنا ننص العيس فيه على الجى إذا نام مولاه ولذّت مضاجعه^(١٠)

(١) الاقذاع : البول الذي الفاحش . والبث في الديوان من ٢٥٦ . (٢) أعدم :
افتقر . (٣) التهوتس الذي يفسره علم النفس لا كتب اللغة [La Manie] (٤) أزمه :
عضه واشتد عليه . (٥) الديوان من ٣٣ . (٦) المساعير واحدها مسعر : وهو الذي
يشعل الحرب وبه تخفى . والشبا مفردا شباة : وهي الحد . والأبلغ : المتكبر .
(٧) الفعّال : الأفعال المجيدة . والتلا : الأموال الموروثة عن الآباء والأجداد .
(٨) الديوان من ١٩٦ . (٩) العاني : الأسير . ويوارعه : يكلمه . (١٠) العيس :
كرائم الإبل . ونصها : سوتها بشدة . والوجى : أن يشتمكي البعير باطن خفه فيسير
سيراً خاصاً . ومولى الأسير : هنا ابن عمه .

ولا ننهي حتى نفك كبوله
 ٤ - وأبقى لنا سرّ الحروب ورزوها
 لنا حاضره فعمّ وباده كأنه
 متى ما تزنا من معدّ بمصبة
 ولدنا بني العنقاء وابني محرق
 نسودّ ذا المال القليل إذا بدت
 لنا الجفنت الغرّ باليمن بالضحي
 أبي فعلنا المعروف أن نطق الحنا
 وافتخار حسان بالأنصار يشبه افتخاره بالخزرج مضافاً إليه تعداد
 مناقب الأوس ، والتمجّد بأنهم جميعاً أول من نصر الرسول ، بعد أن
 أنكرت دعوته قريش ، وتجهمت له الأرض ، وأن الله تعالى خصهم بهذا
 الإكرام وبصدق النبي الداعي إلى الحق ، وأن لهم أبطالاً صناديد ماتوا
 في سبيل الدفاع عن الإسلام :

١ - وكنا ملوك الناس قبل محمد
 وأكرمنا الله الذي لبس غيظه
 بنصر الإله للنبي بدبفه
 ومنا أمين المسلمين حياته . ومن غسلته من جنابته الرسول^(٩)
 فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل
 إله بأيام مضت ما لها شكل
 وأكرمنا باسم مضي ما له مثل

(١) الديوان ص ٢٦٣ - ٢٦٤ (٢) الرّزء : المصيبة العظيمة . والعمرم : الكثير .
 (٣) الفعم : الكثير الممتلئ . والبادي : الماضي . ورّضوى : جبل . وشما ريخه : أعاليه .
 (٤) من معدّ : أي من العدنانيين . وغسان : الواو للقس . (٥) العنقاء هو ثعلبة بن عمرو
 ابن حاصر بن ماء السماء . ومخرّق هو الحارث بن عمرو . (٦) المديم : الفقير .
 (٧) الجفنت : القصاع الواسعة . والتجدة : نصرة المستجد . (٨) العرف : المعروف .
 والآيات في الديوان ص ٣٧٠ - ٣٧٣ . (٩) أمين الله هو أمين المسلمين سعد بن معاذ
 الأوسي الذي اهتز لموته العرش . أما حفظة بن حاصر فقتل يوم أحد وغسلته الملائكة .

- ٢ - ألا أيها الساعي ليدرك مجدنا
فهل يستوي ماء ان أخضر زاخر
تناول سهيلاً في السماء فهاته
لنا جبل بعلو الجبال مشرفاً
مساميح بالمعروف وسط رحالنا
ومن خير حي تعلمون لسائل
ومن خير حي تعلمون لجارهم
وفينا إذا ما شبت الحرب سادة
نصرنا وآويننا النبي وصدقت
وكننا متى بغز النبي قبيلة
ويوم قريش إذ أتونا بجمعهم
وفي أحد يوم لهم كان مخزياً
ويوم ثقيف إذ أتبنا ديارهم
فقرؤا وشد الله ركن نبيه
وإني سهل للصديق وإني
وأجعل مالي دون عرضي وقابة
- نأتك العلا، فاربع عليك فسائل^(١)
وحسي ظنون ماؤه غير فاضل^(٢)
ستدر كنا إن نلت به بالأنامل^(٣)
فنحن بأعلى فرعه المتطاول^(٤)
وشباننا بالفحش أبجل باخل
عفاً وعان موثق بالسلاسل؟^(٥)
إذا اختارهم في الأمن أو في الزلازل^(٦)
كهول وفتيان طوال الحائل^(٧)
أوائنا بالحق أول قائل
نصل حافتيه بالقنا والقنابل^(٨)
وطئنا العدو وطأة المشاغل
نطاعنهم بالسهمري الذوابل^(٩)
كتائب نمشي حولها بالمناصل^(١٠)
بكل فتى حامي الحقيقة بأسل^(١١)
لأعدل رأس الأصغر المتأبل^(١٢)
وأحجبه كي لا يطيب لا كل

- (١) نأتك : أبعدتك • أربع عليك : أقعد وابق على حالتك • (٢) الزاخر : الكثير •
والأخضر : البحر • والحسي : الماء القليل • والظنون : الذي لا يوثق بما فيه لقلته وفساده •
(٣) سهيل : نجم في السماء • (٤) فرع الجبل : أعلاه • (٥) العاني : الأسير •
(٦) الزلازل : أيام الشدة • (٧) حائل السيف : التي يعلق بها • مفردها : حاملة •
وطوال الحائل كناية عن طول القامة • (٨) القنبلة : الطائفة من الخيل والناس •
والجمع : قنابل • (٩) السهمري : الرمح الصلب • والذابل : الرمح الدقيق العود • جمعه ذوابل •
(١٠) المنصل : السيف • جمعه مناصل • (١١) حقيقة الرجل : ما يلزمه حفظه ومنعه وحمايته •
(١٢) الأصغر : المائل العنق تكبراً •

وأي جديد ليس بدركه البلى وأي نعيم ليس بومًا بؤائل^(١)
 وخلاصة القول أن نخر حسان جيد مطرب ، تنفجر فيه المعاني من
 عيون الشعر صافية ثرارة ، وتنبت منها التشابيه والخيالات لماعة مستعملة ،
 ونسيل حلوة مغرية في ثوب من الألفاظ قشيب ، على موسيقى فائقة ،
 فيها هزة ونشاط ، وفيها علو وأريجية ؛ فيشعر القاري أن حسان
 في هذا الغرض الشعري ، في الميدان الذي يستطبع فيه أن يجول ويصول ،
 ويعرف كيف يقول^(٢) .

الهجاء

يطلب الهجاء نفسًا مظلمة كالصخور ، أو جمعها نوائب الدهر ، وجرح
 كبرياءها مظالم الناس ؛ فاسودت في عينها الحياة ونقمت على البشر ؛ فأخذت
 تنسقط عيوبهم ، وتجمع معايرهم ، لتشتتها من بعد ذلك كرمًا دفينًا ولهبًا مسمومًا
 ومن الواضح البديهي أن لا يجيد حسان هذا النوع من النول في الجاهلية ،
 وهو الذي أحب حياة اللهو والعبث ، ونشد اللذة والسرور في كل مكان .
 فكان إذا اضطر إليه اضطراراً قال فيه الأبيات القليلة لرد الخصوم ، ثم
 فرّ منه إلى الفخر : هذا الضرب الوديع المسالم من الهجاء الذي كان يتقنه
 أشد الإثقان .

(١) الديوان ص ٣١٢ — ٣١٧ .

(٢) الفخر في الديوان في الصفحات : ١٧ ، ٣٢ — ٣٣ ، ٥٤ ، ٨٠ — ٨١ ، ٨٧ —

٨٨ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٣ — ١١٨ ، ١٢٧ — ١٣٠ ، ١٣٩ — ١٤٠ ،

١٤١ ، ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٨٧ ، ١٩٦ — ١٩٧ ، ٢٠٢ — ٢٠٦ ، ٢٠٧ — ٢٥٧ ،

٢٦٢ — ٢٨٢ ، ٢٦٥ — ٢٨٦ ، ٢٨٥ — ٢٩٠ ، ٣٠٢ — ٣٠٤ ، ٣٠٨ —

٣١٣ ، ٣١٦ — ٣٢٦ ، ٣٢٧ — ٣٢٨ ، ٣٣٢ — ٣٤٩ ، ٣٤٥ — ٣٥٥ ،

٣٧٠ — ٣٧٢ ، ٣٧٢ — ٣٧٧ ، ٣٧٧ — ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ — ٣٨٦ ، ٣٨٥ —

٣٨٧ ، ٣٩١ — ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٢٥ — ٤٢٦ .

وما ظننا بشاعر بهجوه قيس بن الخطيم بقصيدة فيها عشرة أبيات موجعة ،
فهرد عليه بقصيدة كلها فخر ، وليس فيها إلا ثلاثة أبيات من الهجاء ^(١) ؟
بل ما الرأى في شاعر يطاول الفحول خيفة المدح ، بمجلس عمرو بن الحارث
الفسافي ، ثم يذهب إلى الخفساء التي لم تعد الهجو ، ويرجوها أن تعينه على هجاء
قيس بن الخطيم فتأبى كل الإباء ^(٢) ؟

ظل حسان لا يُعني بالهجاء حتى انقضى عهد الجاهلية ، وانقضت معه حياة
اللهو واللعب ، وأسلم وندب نفسه للدفاع عن الإسلام ، فهاجاه الكفار وأنقلوا
عليه الشتم والسباب ، وأفحشوا له ولقومه بالقول ، ونسقطوا مثالبه وقعدوا له
كل مرصد ، وحملوه على العناية بالهجو حملاً .

ولقد أعانه على التوفيق في هذه الحرب الفاضحة التي لم يعتد خوضها ،
أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، الذي كان بدله على مثالب القرشيين ومغامز
أنسابهم ، فيصورها حسان تصويراً شعرياً ، وينظمها في وزن ، وبقذف بها
وجوه الأعداء فيشتفي ويشتفي ^(٣) .

كان هذا الفن الجديد في شعره يعتمد : (أ) على ذكر معائب الكفار
ومناقصهم ، وإسناد القبيح إليهم (ب) وعلى ذكر السمكات البذنيات والمعاني
المخجلة للمهجوين . (ح) وعلى الإضحاك والسخرية . (د) وعلى الدفاع عن
الأنصار بالتماني والافتخار .

أ - ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوفٌ نخبٌ هواءٌ ^(٤)
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإماء ^(٥)

(١) الديوان ص ١٢٢ - ١٣٢ . قال قيس « في قصيدته » :

إذا المرء لم يُفضل ولم يلق نجدة مع القوم فليقعد مبصر ويعد

(٢) الأغاني ج ٢ ص ١٦٣ . (٣) كما قال عليه الصلاة والسلام . (٤) الأجوف :

الحالي الجوف من القلب . ومثله النخب والهواء . (٥) عبد الدار بطن من قريش كانوا
يحملون الراية في أحد . فلما قتل حاملها تناقلها بينهم أبطال منهم كثيرون ، فقتلوا جميعاً فأخذها
عبد لهم أسود .

- ٢ - يا حار إن كنتَ امراً متوسعاً فاقدر الألى بنصفن آل جناب^(١)
أجمعتُ أنك أنتَ الأم من مشي في فُخش مومسة وزول غراب^(٢)
وكذاك ورثك الأوائل أنهم ذهبوا وصرت بنخزية وعذاب
فورثت والدك الخيانة والخفا واللوم عند تقايس الأحساب^(٣)
وأبان لؤمك أن أمك لم تكن إلا لشر مقارف الأعواب^(٤)
٣ - يا آل سهم فإني قد نصحت لكم لا أبعثنَّ على الأحياء من قُفرا
ألا ترون بأني قد ظلمت إذا كان الزبيرى لنعلي ثابت خطوا^(٥)
كم من كريم بعض الكلب مئزره ثم بفور إذا ألقمته الحجر^(٦)

ب -

- ١ - قال يهجو قوماً من مزينة حين مرَّ بمجالسهم فضحك منه بعضهم :
أبوك أبوك وأنت ابنه فبئس البني وبئس الأب
وأمك سوداء نويبة كأن أناملها الحنظب^(٧)
إذا ممعوا الغي آدوا له تيموس تفب إذا تضرب^(٨)
نرى التيمس عندهم كالجوا در بل التيمس وسطهم أنجب
فلا تدعهم لقراع السكاة وناد إلى سوأة يركبوا^(٩)

- (١) المتوسع : ذو الثروة . الألى : أولئك (النسوة) اللواتي . وينصفن : يخدمن .
وجناب : هو ابن عبد الله السكلي . (٢) زول الغراب : مشيته الخاصة به . (٣) الخفا :
الفخش في الكلام . (٤) المقارف : المقارب للدينة . والأبيات في الديوان ص ٥٩ - ٦١
(٥) عبد الله بن الزبيرى شاعر هاجى المسلمين ثم أسلم بعد الفتح . وثابت : أبو حسان .
الخطر : الشأن و (الأهمية) . (٦) المئزر : الأزار . والأبيات في الديوان ص ٢٢٥
(٧) النوب : القوم من السودان والحنظ : ضرب من الخنافس . (٨) آدوا : حادوا
 واجتمعوا . تنب : تصبج . (٩) السكاة جمع كهي : وهو الفارس التام السلاح .
والسوأة : الأمر السيئ . والأبيات في الديوان ص ٦١ - ٦٢ .

- ٢ - أما الحماس فاني غدير شاتمهم
 كأن ريحهم في الناس، إذ برزوا
 أولاد حام فلن تلقى لهم شبيهاً
 إن سابقوا سبقوا، أو نافروا نفروا
 شبه الإماء، فلا دين ولا حسب
 تلقى الحماسي لا يمنعك حرمة
- ٣ - لو خلق اللوم إنساناً بكلمهم
 تبكي القبور إذا مات ميتهم
 مثل القناذل تحزي أن تفاجئها
- د - لقد خاب قوم غاب عنهم نبئهم
 ترحل عن قوم فضلت عقولهم
 هدام به بعد الضلالة ربههم
 وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا
 لقد نزلت منه على أهل بئر
- لا هم كرام ولا عرضي لم خطر
 ريح السكالب إذا ما بلها المطر
 إلا التيوس على أكتافها الشعر^(١)
 أو كاثروا أحداً من غيرهم كثروا^(٢)
 لو قاموا الزنج عن أحسابهم قفروا^(٣)
 شبه النبيذ، إذا استعبدتهم صبروا^(٤)
 لكان خير هذبل حين تأتيها
 حتى يصبح بمن في الأرض داعيها
 شدء النهار، وبلى الليل ساريها^(٥)
 وقُدس من يسري إليهم ويفتدي^(٦)
 وحل على قوم بنور مجدّد
 وأرشدهم؛ من يتبع الحق يرشد
 عمى، وعداة يهتدون بهتد؟
 ركب هدى حلت عليهم بأسعد^(٧)

لا شك أن حسان لم يسقط على أدغال الهجو الرهيبة سيطرة معاصره
 الضاري أبي مليكة جلول، لأنه لم يخلق له بالفطرة، ولأن المجال الذي كان
 يجول فيه، وهو بهجو الكفار من بيت الرسول، كثير المهابي والمزالق،

- (١) حام بن نوح : جد السودان . (٢) نافر : فاخره في الحسب والنسب .
 (٣) الإماء : الجواري . مفردا : أمة . وقامره : راهنه ولاعبه في القمار . وقره : غلبه
 في القمار . (٤) النبيذ : قوم سكنوا الشام . (٥) شدء النهار : طوله وامتداده وهي
 هنا منصوبة على الظرفية . (٦) يسري إليهم : يسير ليلاً . ويفتدي : يسير صباحاً في الغداة .
 (٧) السعد : اليمن . وضده : النحس . والجمع أسعد . والأبيات في الديوان ص ٨٧-٨٨

أن يجنوه من خير ومال^(١) . وقد روت الرواة أن النابغة الذبياني من
الأشراف الذين غصّ المدح من شأنهم . لقد لم 'بعن' حسان بهذا الغرض
في الجاهلية عناية كبيرة ، كما يتوهم بعض الناس ؛ ولولا حبه لحياة القصور
وقرابة له الغساسنة التي تُدفي مديحه من الفخر لما مدحهم بلاميته المشهورة
إني أسماها عمرو بن الحارث البتارة التي بترت كل المدائح :

أسألت رسم الدار أم لم نسأل	بين الجواني فالْبُضَيْعُ فحومَل ^(٢)
دار لقوم قد أراهم مرة	فوق الأعزة ، عزّهم لم يُنقل
لله درث عصابة نادمهم	بوماً يجلّق في الزمان الأول ^(٣)
يمشون في الخُلّ المضاعف نسجها	مشيَ الجِمال إلى الجِمال البزَل ^(٤)
الضاربون الكبش يبرق بيضه	ضرباً يُطيح له بَنان المَفْصِل ^(٥)
والخالطون فقيرهم بغنيهم	والمنعمون على الضعيف المُرْمِل ^(٦)
أولادُ جَفْنَةٍ حولَ قبر أبيهم	قبر ابن مارية الكريم المَفْضِل ^(٧)
'يقشون' حتى ما تهر كلابهم	لا يسألون عن السواد المُقْبِل ^(٨)
يسقون من وَرْد البريص عليهم	بردى يُصَفّق بالرحيق السلسل ^(٩)
بيضُ الوجوه كريمةُ أحسابهم	شُمّ الأنوف من الطراز الأول ^(١٠)
نسي أصيل في الكرام ومذودي	تكوي ميارِسمه 'جنوب المصطلي ^(١١)

- (١) المال هنا : الإبل والغنم . (٢) الجواني والبضيع وحومل مواضع في الشام .
(٣) العصابة : الجماعة ؛ وجلق : دمشق . (٤) المضاعف نسجها : المبطنه . والبازل :
البعير إذا بلغ الثامنة من عمره واستكمل . والجمع 'بزَل' . (٥) الكبش : رئيس القوم .
والبيض جمع بيضة وهي الخوذة . أطاح : أذهب . والمفصل : هنا اليد . (٦) المرمِل :
اللاصق بالرمل لقره . (٧) جَفْنَة بن عمرو : أبو ملوك غسان . (٨) 'يقشون' :
يقصدون . (٩) البريص : قصر . يُصَفّق : يُمزج . (١٠) الشمم في الحقيقة :
رتقاع في قصبة الأنف . وفي المجاز الأُتفة والعزة . والطراز النوع والشكل .
(١١) المياسم ج ميسم : حديدة 'يسكوى بها' . والمصطلي : المقارب للنار .

ولقد تقلدنا العشيّة أمرها ونسود يومَ النّائبات ونعتلي
 ويسود سيدنا ججاجع سادة^(١) ويُصيبُ قائلُنّا سواءَ المفصل^(٢)
 وتزور أبواب الملوك ركابنا ومتى نُحكّم في البرية نعدل^(٣)
 فلما جاء الإسلام اتصل فخر حسان المزداد بالمدح والهجاء قوي مدحه
 كما قوي هجاؤه ، وأصبح يقول القصائد في مدح الرسول وأبطال المسلمين :
 قال يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

١- وأحسنُ منكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عيني وأجلُ منكَ لَمْ تَلِدِ النساءِ
 'خَلِقْتَ' مَبْرَأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ 'خَلِقْتَ' كَمَا أَنشَأَ^(٤)
 ٢- متى يبد في الداجي البهيم جبينه يَلُجُ مِثْلَ مَصْبَاحِ الدجى المتوقدِ
 فمنَ كانَ أوَمَنَ قد يَكونُ كأحمدٍ نِظَامًا لِحَقٍّ أَوْ نِكَالًا لِلْمُجِدِّ؟^(٥)

وقال يمدح أبا بكر الصديق :
 إذا تذكّرتَ شَجَوًّا مِنْ أَخِي ثِقَةٍ فَاذْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا
 القالي الثاني المحمود شيمته وأول الناس طرأ صدق الرسل^(٦)
 والثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعد الجبل^(٧)
 وكان حب رسول الله ، قد علموا من البرية ، لم يعدل به رجلا^(٨)
 خير البرية أنقاها وأرافها بعد النبي وأوفاهما بما حملا^(٩)
 لكن كل هذه الأماديح ، بالنسبة إلى كثرة الشعر المروي لحسان ،

(١) الججاجع : السادة . وإصابة سواء المفصل كناية عن إصابة الغرض وبلوغ القصد .
 (٢) القصيدة في الديوان ص ٣٠٧ — ٣١٢ . (٣) الديوان ص ١٠ . (٤) النكال :
 العقاب : يكون عبرة للآخرين . واليئنان في الديوان ص ١٠١ . (٥) الشيمة : الطبع
 والسجية . (٦) المنيف : المرتقم . (٧) الحب : المحبوب . (٨) الديوان
 ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

قائلة لا تنفع صدى . وهي — كما نرى — ليست كلها من جيد القول ؛ لأن شاعرنا ، في هذا الباب ، في الهجاء ، لا يجيد الكلام إلا إذا وجد فيه سبيلاً للانفخار ؛ فإن كانت عينيته التي أسعها وفد نعيم جيدة حقاً فخمة حقاً فذلك لأنها مدح للرسول وآله ، ونخر بالأنصار :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم	قد بينوا سنة للناس تتبع ^(١)
يرضى بها كل من كانت سريره	نقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا ^(٢)
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم	أو حاولوا النفع في أشياءهم نفعوا ^(٣)
سجية تلك فيهم غير محدثة	إن الخلائق فاعلم : شرها البدع ^(٤)
لا يرفع الناس ما أوهت أكتفهم	عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا ^(٥)
إن كان في الناس سباقون بعدهم	فكل سبق لأدنى سبقهم تبع ^(٦)
لا يجهلون ، وإن حاولت جهلهم	في فضل أحلامهم عن ذاك متسع ^(٧)
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم	لا يطبعون ولا يردبهم الطمع ^(٨)
أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم	فما وني نصرهم عنه وما نزعوا ^(٩)
خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا	ولا يكن همك الأمر الذي منعوا ^(١٠)
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم	إذا تفرقت الأهواء والشيع ^(١١)

(١) ذؤابة : كل شيء أعلاه والجمع ذوائب . والسنة : الطريقة . (٢) السريرة : النية . وشرعوا : بينوا . (٣) الأشياء جمع شيعة : الأنصار . (٤) الخلائق مفردا خليفة : وهي الطبيعة . والبدع مفردا بدعة : وهي الأمر الجديد المستحدث . (٥) أوهى : أضعف . (٦) الأدنى : الأقل والأبعد عن سبق . (٧) الفضل : زيادة . والجهل هنا ضد الصلاح والرشاد . (٨) لا يطبعون : لا يفعلون ما يدينهم . ويردي : يهلك . (٩) البر : الخير والإحسان . وني : ضعف . ونزع هنا : كلف وانتهى . (١٠) الذي منعه . حذف العائد . (١١) الشيعة : الناصر . تقع على المفرد والثني والجمع والمذكر والمؤنث واحد .

وإذا لم يمدَّ الفخرُ مدحَ حسان بجائه وروقه جاءت أماديجه جافةً ضعيفة ،
تُترصف فيها الصفات الحسنة رصفاً ، ثم تُتجمع في كلام موزون مقفى دون
أن يُجعل لها ما ينوتها ويُسيغها في الأذواق ؛ أو يصورتها وبلوتها
وبذهب عن حواشيهما الدُّكنة والظلال . مثال هذا المدح الضعيف ما تقدمه
من قوله في أبي بكر . وهناك أمثلة أخرى تربنا فضل الصورة في حسن التعبير ؛
منها أن حسان لم يوفق في مدح الرسول حين قال :

واللهِ ربي ، لا نُفارق ماجداً عَفَّ الخليفة ماجدَ الأُمجاد^(١)
لكنه وفق في قول فيه :

له وَتَبَّ عال على الناس كلهم نفاصرُ عنه سورة المتطاول^(٢)
ولم يأت بالمعجب حين قال مدح عائشة :
مهذبةٌ قد طَيَّبَ اللهُ خِيَمَهَا وطَهَّرَهَا من كل سوء وباطل^(٣)
ولكنه أحسن في قوله :

حصانٌ رَزَانٌ ما تُتَرَنُّ برِبةً ونُصبح غَرثِي من لحوم الغوافل^(٤)

ولا بد لقاريء مدح حسان من التساؤل عن سبب قلة مدائح في الرسول .
إذ لم يرد في دهبه المطبوع في أربعائة وثلاثين صفحة متوسطة الكبر
إلا خمسة وأربعون بيتاً في مدح النبي الكريم ، بشاركه في عشرين منها الأنصار
والمهاجرون . أفعرَف في نفسه التقصير أم كان الرسول لا يحب هذا الضرب
من الشعر ولا يشجع عليه ؟ وإذا صح ما رواه صاحب جمهرة أشعار العرب
أن النبي ﷺ لما بلغه أن قومًا نالوا من أبي بكر ، صعد المنبر وامتدحه

[١] العَفَّ : العفيف . [٢] الرَّتَب : المكان المرتفع . والسورة : الوثبة .
والمُتَطَاوِل : المتكبر الذي يريد أن يعلو على الناس . [٣] الخِيم : الطيم والسجية .
[٤] الحصان : النفقة . والرزان : المرأة الوفرة الوقار . وتُتَرَنُّ : تُظَنُّ . وغرثي : جاعلة .
وَالْغَوَافِل جمع غافلة وهي المرأة البريئة الشريفة لا تنسك في شر .

الرثاء

الرثاء مدح مشرب بالحزن ، مكفن بالحسرات ، مغسل بالدمع السخين .
والشاعر الذي لا يتقن المدح لا يجيد الرثاء . وحسان ، على كثرة مرثيته
بالإضافة إلى مدائحها ، ليس له قول في التفعيع مشهور اللهم إلا أبيات
متفرقة لا يكاد يترأى فيها لب الحسرة وتكسر الحزن وصدق العاطفة
حتى ينقطع النفس وتخبو روعة الكلام :
قال يرثي الرسول :

- ١ - تالله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل الرسول نبي الأمة الهادي
ولا برا الله خائفاً من بريقه أوفى بذمة جاري أو ببيعادي^(١)
من الذي كان فينا يستضاء به مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد^(٢)
- ٢ - يا أفضل الناس ! إني كنت في نهر أصبحت منه كمثل المفرد الصادي^(٣)
أسمى نساؤك عطلن البيوت فما يضرين فوق قفا سائر بأوتاد^(٤)

أو تأتي صورة دخيلة نافرة فتذهب الرغبة في البكاء ، وتفسد رهبة
التصوير ، أو توشك أن تقلب الرثاء إلى ثمانية وهجاء .
قال يرثي الرسول أيضاً :

- ١ - لقد غيَّبوا حلماً وعلماً ورحمة عشيّة (علوة الثرى لا هوسد)
٢ - فليتنا يوم وارؤه بلحده وغيبوه (وألقوا فوقه المدرا)^(٥)
لم يترك الله منا بعده أحداً ولم يُعش بعده أنثى ولا ذكراً

[١] برأ : خلق . [٢] الديوان ص ٩٩ . [٣] الصادي : العطشان .
[٤] لله يقول : لم يمدن يحتجن للستر الذي يوضع للنساء في البيوت لا تقطاع الزائرين والقاصدين
والأبيات في الديوان ص ١٠٠ . [٥] الملحد : القبر . والمدار : الطين .

وأكثر مراتي حسان في الرسول وعثمان وأهل مؤتة^(١) وخبيب بن عدي^(٢)
وحمة عم النبي .

أما رثاؤه للرسول فقد كان قوي العاطفة عميق الألم حاطم الأسي ؛
لكنه كان سيئ العرض ، أصم الجرس ، قلق التركيب ، بفسده
النفس المنقطع والصور الدخيلات النابيات :

بطيئة رسم للرسول ومعه	منير ، وقد تغفو الرسوم وهمد ^(٣)
ولا تسمح الآيات من دار حرمة	بها منير الهادي (الذي كان يصعد)
بها حجرات كان ينزل وسطها	من الله نور يستضاء بهوقد
عرفت بها رسم الرسول وعهده	وقبراً به (واراه في التراب ملحد)
ظلت بها أبكي الرسول فأسعدت	عيون ومثلاها من الجفن تسعد ^(٤)
مفجعة قد شفها فقد أحمد	فظلت لآلاء الرسول تعدد ^(٥)
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت	بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد ^(٦)
لقد غيبوا حلماً وعالماً ورحمة	عشية (علوه الثرى لا يوسد ^(٧))

[١] جهز الرسول عليه الصلاة والسلام في السنة الثامنة للهجرة جيشاً ليقصص من قتلوا
رسوله إلى أمير بصري وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال لهم : إن أصيب فأمركم جعفر بن
أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة . وكان الجيش ثلاثة آلاف . فوجد الروم في
مؤتة وقتله فقتل زيد وجعفر وعبد الله ، فأمروا خالد بن الوليد فتناوش الأعداء سبعة أيام
ثم تحاجز الفريقان ونجى خالد جيش المسلمين . [٢] أسر يوم الرجيم وصلبه الكفار .
[٣] طيبة : يثرب . وعفا الرسم : بلي وذهب أثره . [٤] أسعدت : أطابت وأمدت .
[٥] شفها : أخرجها وهزلها . والآلاء : النعم . [٦] ثوى : حل . [٧] الثرى :
التراب . أخذ الكميت معنى اليتيم فقال يرثي الرسول :

فبورك قبر أنت فيه وبوركت به وله أهل بذلك يثرب
لقد غيبوا يراً وحزناً ونائلاً عشية واره الصفيح النصب

وراحوا يحزن لبيس فيهم فليهم
وقد وهنت منهم ظهوره وأعضد^(١)
وهل عدلات يوماً رزبة هالك
رزبة يوم مات فيه محمد^(٢)
فبكي رسول الله (با عين) عبدة !
ولا أعر فك الدهر دمعك يحمد^(٣)
وجودي عليه بالدموع وأعولي
لفقد الذي لا مثله الدهر بوجد^(٤)

* * *

كنت السواد لناظري فعمي عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر^(٥)

وأما رثاؤه لعثمان فقد كان يشوبه هجاء القاتلين وتهديد لهم والتجريض عليهم .
من صرّ الموت صرفاً لا مزاج له فليأت مأسدة في دار عثمان^(٦)
بل لمت شعري (ولبت الطير تخبرني)
ما كان شأن علي وابن عفانا
ضحى بأشمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا^(٧)
لتسمعن وشيكاً في ديارم
الله أكبر يا ثارات عثمان^(٨)
شدوا السيوف (بثني في مناطقكم)
حتى يحين بها في الموت من حانا^(٩)
لعلكم أن تروا يوماً بمقبطة
خليفة الله فيكم كالذي كانا^(١٠)

[١] وهنت : ضفت . والعصد : الذراع من المرفق إلى الكتف جمعه أعضد .
[٢] الرزية : المصيبة . [٣] حمد الدمع : اقتطم عن الجري . [٤] أعول : رفع
صوته بالبكاء . والقصيدة في الديوان ص ٨٩ — ٩٥ . [٥] أخذ المعنى أبو نواس
فقال في رثاء الأئمين :

وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

« زهر الآداب ج ٢ ص ٢١٢ » . [٦] الأشمط : الذي خالط سواد شعره بياض .
[٧] وشيكاً : قريباً سريعاً . [٨] المناطق جمع منطق وهو ما ينتطق به . يحين : يهلك
[٩] المنبطة : الغبطة والسرور . يقول : حتى تموتوا وتلقود في الجنة كما كان ب أو لله يقول :
حتى يأتيكم خليفة كعثمان في التقوى . والآيات في الديوان ص ٢٠٩ .

ومن أحسن مرثياته قوله في جعفر بن أبي طالب وقد قتل في مؤتة :
ولقد بكيتُ وعزَّ مهلك جعفرِ حَبَّ النبيّ على البرية كلّها
ولقد جزعت وقلت حين نُعيّت لي من للجلاد لدى العقاب وظلّها ^(١)
بالبیض حين تُسلُّ من أغمادها يوماً وانهاهال الرماح وعلىها ^(٢)
بعد ابن فاطمة المبارك جعفرِ خير البرية كلّها وأجلّها
رُزءاً وأكرمها جميعاً محبداً وأعزّها متظلياً وأذلّها ^(٣)
للحق حين ينوب غير تنحلّ كذباً ، وأغمرها ندى وأقلّها ^(٤)
خشاً وأكثرها إذا ما تجتدى فضلاً وأبذلّها ندى وأذلّها ^(٥)
ع الخیر بعد محمدٍ ، لا شبهه بشره بُعد من البرية جلّها ^(٦)
وقوله في رثاء حمزة بن عبد المطلب ، وقد قتل يوم أحد :

دع عنك داراً عفا رسمها وابك على حمزة ذي النائل ^(٧)
أبيض في الدُروة من هاشم لم يمر دون الحق بالباطل ^(٨)
أظلمت الأرض لفقدانه واسودّ نور القمر الناصل ^(٩)
صلى عليك الله في جنة عالية مُكرمة الداخل ^(١٠)

لم يكن حسان - وهو من عرفناه لاحقاً في الجاهلية - حكيماً فيلسوفاً عميق النظر في الحياة ، حتى يملأ رثاءه بالحكمة وبيان حقارة الحياة الفانية

- (١) الجلال والمجادة : المضاربة بالسيوف . العقاب : راية النبي . (٣) بالبيض : بالسيوف . متعلقها الجلال . وانهل الرمح : سقاء . وعله : سقاء مرة بعد مرة . (٣) الرزء : الخطب والمصيبة . والمحبّد : الأصل . (٤) تنحلّ : تلمس وادّعى . والندى : الكرم . (٥) اجتداه : طلب منه الجداء : وهو العطاء . (٦) الديوان من ٣٣٦ — ٣٣٧ . (٧) النائل : العطاء . (٨) مرآة حقه : ججده . (٩) الناصل : الظاهر البين . (١٠) الديوان من ٣٣٠ — ٣٣١ .

ووصف الموت الوصف المرعب المبكي أو المصير المعزّي . وكان في القرآن الكريم غناء عن أن يطيل الكلام على الدار الآخرة وما ينتظر المؤمنين فيها من حياة رغيدة ونعيم مقيم . لذا كان رثاء حسان لا يشتمل إلا على المديح والبكاء . وأهم خصائص هذا الرثاء أ زخره بالنعوت الممدّحة في الجاهلية والإسلام ، وإن لم يعرض أكثرها عرضاً شعرياً مؤثراً . ب - ومخالطته للتهديد والتحريض والفخر والهجاء ، في أغاب الأحيان . ج - ونصويره الميت في جنة الفردوس ، وإن كان موجزاً لا يفي بالمرام . د - ومحاولته الاستفادة من وزن الشعر وموسيقاه ؛ وذلك يربط آخر البيت بأول تاليه - كما في رثاء جعفر بن أبي طالب - لتمديد النفس وتطويل الآنة المحمودين في البكاء ^(١) .

أسلوب حسان

أرتنا دراسة أغراض حسان الشعرية أن معانيه كانت (غزيرة) (طريفة) تنم عن ملاحظة دقيقة و (خيال خصب) ؛ وأن أثر (الحضارة) و (الإسلام) فيها متميز ظاهر . وأخذنا على أكثر هذه المعاني أن (النفحة الشعرية) لا تكاد تنسجم فيها حتى تتلاشى وتموت ؛ وأنها في كثير من القصائد (تتوالى بسرعة) و (تتدافع) تدافع السحب في السماء ؛ فلا تكشف عن صورة ثابتة مستهوية ، وبغني بعضها جمال بعض ؛ أو تأتي بينها (الصور النافرة الدخيلة) فتؤذيها كما تؤذي الأعشاب الضارة النبات الكريم .

(١) الرثاء في الصفحات التالية من الديوان : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٨ ، ٤٠

٥٣ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ٩٩ - ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٩ -

١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٣ - ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٣٣ ، ٢٥٣ - ٢٥٤ ، ٢٩٠ ، ٣٢٩

٣٣٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٨ ، ٤٠٩ ، ٤١١ .

ونرى الآن أن أسلوب حسان اللفظي كان أيضاً مما يسبب إساءة المعنى ،
وغموض القصد ، وظهور البتر والكرازة . فكثير من ألفاظه أصبح اليوم
غريباً مهجوراً . أما السهولة الجيدة منها فيخفق في الغالب ، في إزالتها
منازلتها في العبارة ؛ فيأتي التركيب متداعياً ، والجرنس مخترشاً . وقد مرت
بنا في الأمثلة السابقة جمل تفصح عن تهاون وضعف وإهمال :

- ١- ولقد كانت (نكوت) بها طفلة ممكورة كاعب
 - ٢- وكان حب رسول الله (قد علموا) من البرية لم يعدل به رجلا
 - ٣- وراح (ثيابه الأولى سواها) بلا بيع (أميم) ولا مهن
 - ٤- حلفت له بما حجت قریش وكل مُشعشع (م الخمر) أن
 - ٥- (ع الخمر) بعد محمد لا شبهه بشر بعد من البرية جلها
- كما مر بنا (إقواء) في البائية المذكورة في باب الخمر . ونضيف هنا
أن من جملة ما يضعف موسيقى الشعر في أقوال حسان قلة عنايته بمحط الجرنس
في عروض البيت ؛ فكثيراً ما يجعله ألفاً رخوة أو يصله بالشرط الثاني^(١) :

يأبى لي السيف واللسان وقو م لما يضموا كلبدة الأسد
لا أخذش الخدش بالنديم ولا يخشى جلبسي إذا انتشيتُ بدي
ولا نديمي العَضّ البخيل ولا يخاف جاري ماعشتُ من وبدي

ولقد أثر القرآن العظيم في أسلوب حسان فأدخل فيه كثيراً من الألفاظ
الإسلامية . لكن عباراته الفخمة القوية الأسر لم تزد تراكيب حسان
— في أكثر الأحيان — قوة ولا إحكاماً . ذلك لأن الشعر العربي
لم يألف من قبل ، المعاني الإسلامية التي جاء بها الكتاب الكريم ؛ فلما تناولها

(١) الفرزدق من أشهر الشعراء الإسلاميين الذين عنوا بمحط الجرنس في آخر الشرط
الأول من بيت الشعر . أنظر كتابنا « دروس الأدب » ص ٣٠٣ .

حَسَّاتٍ سَلَكَ إِلَيْهَا طَرِيقاً جَدِيدَةً لَا مَهْدَةَ وَلَا مَطْرُوفَةَ ؛ وَكَانَ هِمَّةً
- وَهُوَ يَرُوضُهَا فِي مَرْبَعِ الشَّعْرِ - أَنْ يَسْلُمَ الْمَعْنَى ، وَلَوْ انْتَهَكَ السَّبْكَ وَالْمَوْصِيقَى :

شَهِدَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ مِنْ عُلٍّ
وَأَنَّ أَبَا يَحْيَى وَيَحْيَى كِلَاهُمَا لَهُ عَمَلٌ ، فِيهِ دِينُهُ ، مُتَقَبَّلٌ
وَأَنَّ الَّذِي عَادَى الْيَهُودَ : ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مَرْسَلٌ
وَأَنَّ أَخَا الْأَحْقَافِ ، إِذْ يَعْمَلُونَهُ يَقُومُ بِدِينِ اللَّهِ فِيهِمْ فَيَعْدِلُ^(١)

وَالْعَنَابَةُ بِالْمَعْنَانِي دُونَ الْأَلْفَافِ أَمْرٌ (طَبِيعِي) مَأْلُوفٌ فِي عَصُورِ الْإِنْفَاقِ ،
حِينَ يُشْغَلُ الْأَدْبَاءُ بِبَيَانِ الْأَفْكَارِ الْجَدِيدَةِ وَالْمَعْنَانِي الْمُسْتَحْدَثَةِ عَنْ الْإِهْتِمَامِ
لِلْأَسْلُوبِ وَتَنْقِيحِ السَّكَلَامِ . وَلَا يَنْصَرِفُونَ إِلَى الْإِعْتِنَاءِ بِسَبْكِ الْجَمَلِ ،
وَالْتَفَنِّ فِي صَوَغِ النَّمَايِدِ وَتَحْسِينِ الْجُرُوسِ إِلَّا فِي عَصُورِ الْاسْتِقْرَارِ حِينَ
تَطْرُدُ الْحَيَاةَ وَتَجْرِي عَلَى نَسْقٍ وَاحِدٍ ثَابِتٍ .

وَلَعَلَّ تَكَرُّرَ الْعِبَارَةِ فِي الْقَصِيدَةِ مَرَاتٍ مِنْ أَظْهَرَ آثَارِ أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ
فِي شَعْرِ حَسَّانٍ ؛ فَكَمَا تَتَكَرَّرُ بَعْضُ الْآيَاتِ فِي بَعْضِ السُّورِ تَتَكَرَّرُ بَعْضُ
الْجُمَلِ فِي شَعْرِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ :

وَأَنْشُدْكُمْ ، وَالْبَغْيُ مُهْلِكُ أَهْلِهِ	إِذَا مَا شَتَاءَ الْحُلَّ هَبَّتْ زَعَاذِعُهُ ^(٢)
أَلَسْنَا نَكُتُ الْكُومَ وَنَسْطُرُ رَحَالَنَا	وَنَسْتَصْلِحُ الْمَوْلَى إِذَا قَلَّ رَافِعُهُ ^(٣)
وَأَنْشُدْكُمْ ، وَالْبَغْيُ مُهْلِكُ أَهْلِهِ	إِذَا الْكَبْشُ لَمْ يَجِدْ لَهُ مِنْ بَقَارَعِهِ
أَلَسْنَا نَوَازِيهِ بِجَمْعِهِ كَأَنَّهُ	أَتَى أَبَدَّتُهُ بَلِيلٍ دَوَافِعُهُ ^(٤)

(١) الْأَحْقَافُ : دِيَارُ حَادٍ ، وَأَخُو الْأَحْقَافِ : هُوْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَالْآيَاتُ فِي الدِّيَوَانِ
مِنْ ٣١٩ - ٣٢٠ . (٢) الزَّعَزَعُ : أَرِيحُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي تَزْعَزَعُ كَرْنِيَّةُ جَمْعِهَا : زَعَاذِعُ .
(٣) الْكُومُ : الْأَيْلُ الْعَظِيمَةُ السَّنَامُ ، فَرَّهَا : كَوَّاءُ . رَافِعُهُ : مَصْلَحُهُ . وَنَكَبْتُ : نَعَقْتُ .
(٤) الْأَتَى : السَّيْلُ الْمَفْاجِي . أَبَدَّتُهُ : مَرَّضَتْهُ . دَوَافِعُهُ : بَنَارِيهِ .

وَأَشْدُّكُمْ ، وَالْبَغْيُ مُهْلِكُ أَهْلِهِ إِذَا الْخِصَمُ لَمْ يَجِدْ لَهُ مِنْ يَدِّ أَفْعَاهُ
أَلَسْنَا نَعَادِبُهُ وَنَعْدِلُ مِيزَانَهُ وَلَا نَنْتَهِي أَوْ يَخْلُصَ الْحَقُّ : نَاصِعُهُ ^(١)

وجملة القول أن عناية حسان بالمعنى دون السبك وجرس العبارة تدع
القاريء لشعره يحسب أنه إنما يقرأ في (مسوِّدة) شاعر فحل كبير لم ينسج
له الوقت للتنقيح والتصفية و (التبيض) .

ديوان

معاداة حسان للقرشيين وانضمامه للعثمانية في خلافة علي ، واشتداد المنافسة
بين الأنصار البنانين وأهل مكة ، في صدر الدولة الأموية ، كل هذا أدخل
في شعر حسان كثيراً مما ليس له . فكان القرشيون ينسبون إليه ضعيف
الشعر لا بذاته . وكان أشباع عثمان يلحقون بشعره كل ما قيل في مقتل
الخليفة وجبل قائله ؛ وكان الأنصار يعزون إليه كل ما قيل من جيد
الشعر في حسن بلائهم في الإسلام ولم يُعرف ناظمه . وقد انتبه بعض
روائنا إلى هذا الأمر فشكوا في كثير من القصائد المنسوبة إليه .
أما الأشعار التي غلبوا صحة نسبتها فقد جمعت في ديوان طبع مرات :
طبعه في ليدن (عام ١٩١٠) المستشرق هرشفلد ؛ وصدره بمقدمة عن
حياة الشاعر وخصائص شعره وأثر الإسلام فيه . وطُبع في مصر طبعات
مختلفة اخترنا منها طبعة المكتبة التجارية (١٣٤٧ - ١٩٢٩) التي صححها
وضبطها السيد عبد الرحمن البرقوقي وعليها اعتمدنا في هذه الدراسة .

(١) المصادرة : المعارضة . وناصعه : بدل من كلمة حق . والأيات في الديوان

مضلة حسان في الأدب العربي

عاش حسان في الجاهلية عبثة اللاهين المستحتمعين بنعيم بئرب والشام .
ولدت رغد العيش المنحضر المستقر ، وتاه بما فيه من شجر وثمر وزينة وقصور
على الأعراب المتخشنين المتنقلين في البوادي والمهامه ، وزين للناس حياة
المدر والزراعة والعيارة في أشعاره ؛ فطرب لذلك أهل القرى ولا سيما
اليثريون ولقبوه (بشاعر بئرب) وحفظوا شعره ، واستنشدوه القيان .
لكن سبيل اللهو والعبث لم يجره إلى الصغر والفجر ، بل ظل في
كل المجالس مثال الفتي العربي المذهب الكريم المحمد ، يفخر بالأصالة
والعزة وكرم الخلق والحسب القاهر ؛ لا يتزلف ولا يتكسب . ولولا أن
ملوك غسان من أهله وعشيرته ، وأنهم يعرفون له مكانته ، لما امتدحهم
ولزم صحبتهم .

فلما جاء الإسلام ، وانصرف بعض الشعراء عن القريض إلى تلاوة
القرآن ؛ واقتصر فريق آخر على ذكر الأفكار والمعاني الإسلامية^(١) ،
أقلع حسان عن صوته ، وقد طالت ، وانقلب إلى حياة جد راشدة^(٢) ،
ووجد في امتداح الإسلام وهجاء أعدائه والفخر بنصرتهم ، باباً من أبواب
الجهاد وخدمة الدين وسبيلاً لفخر الأنصار على منافسيهم المكيين .
فاندفع في نصرة الرسول والمسلمين بلسانه حتى لُقّب (بشاعر النبي)^(٣) .
واقف في الفخر بالأنصار حتى صار (شاعرهم) و (شاعر الجانية في الإسلام) ؛
به يتباهون ، ولشعره يحفظون .

(١) كان حسان وكمب بن مالك يعارضان القرشيين الكفار بمثل قولهم : بالوقائم والمآثر
ويعيرانهم بالمثالب (وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر) . (٢) كثيرهم الشعراء الذين
تابوا إلى الرشيد بعد طول الصبوة نذكر منهم الفرزدق وعمر وأبا الغتاهية وأبا نواس .
(٣) فهو لهذا الأمر شاعر النبوة لا لكثرة أماديجه في الرسول .

وقد طرق حسان أشهر أبواب الشعر المألوفة في عصره فبرع بالفخر ، وأجاد النسب ونعت الخمر ولم يقصّر بالهجاء . لكنه تخلف بالرثاء ، ولولا أن له في المديح لا ميمته وعينيمته المطربتين حقاً لتخلف أيضاً في هذا الباب .

وثمة أبواب شعرية جديدة ، جاء بها الإسلام وسبق حسان إلى طرقها ؛ لكنها - لجدتها - لم تنفتح له على المصراعين ؛ أظهرها : (شعر الدعاة والمحاماة) و (الشعر الديني) و (شعر الملاحم)^(١) .

والجيد في شعر حسان كثير ، فإن كانت له قصائد لا تُذوق إلا بعد إدامة النظر والتفكير فلأنه من الشعراء الذين منعهم (فيض خاطرهم) و (جموح خيالهم) و (تنوع معانيهم) و (جدة بعضها) و (اضطرابهم في أغلب الأحيان إلى الارتجال) من إسقاط المعاني (المبتذلة) و (الشاحبة الناصلة) و (النابية) وتنبع المعنى الواحد حتى (يتضح) و (يتم) و (يستقيم) واختيار الألفاظ التي (تجانسه) والعبارات التي (تبين عنه) ونظيره (المظهر الممتنع القشيب) .

ومما يمكن من الأمر فقد جمع شعره نماذج رائعة من جيد الشعر الجاهلي ، وقصائد متقنة من أظهر ما قيل في العصر النبوي ، وحقائق تاريخية معينة على دراسة الانقلاب المحمدي ، وأشعاراً طريفة تنبئ عن الحياة الشعرية الجديدة التي أخذ في بعثها الدين الجديد .

(١) راجع في الديوان لاميته من ٣٢٨ وميميته من ٣٧٣ اللتين هما ملحمتان من الملاحم الشعرية : « عدت فيها فضائل الأنصار وأيامهم المشهورة » .

بعض موضوعات النساء الأدبي في حسان

- ١ - قال الأصمعي : الشعر نكد ، بقوى في الشر ويسهل ؛ فإذا دخل في الخير ضعف ولان . هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره . ناقش هذا القول وادعم مناقشتك بالأمثلة !
- ٢ - ناقش الرأي الآتي :
« أحب حسان لهو الحياة ومقاعها فأجاد النسب ووصف الخمره ومجالس اللهو والنعيم ، وكره الجد والنكد والتكلف فقصر في المدح والهجاء والحكمة والرثاء » .
- ٣ - اشرح القول الآتي :
« فخر حسان في الجاهلية فلما جاء الإسلام ازداد فخراً » .
- ٤ - ناقش القول الآتي :
يسري الفخر في كل أشعار حسان كما يسري النسخ في كل الأغصان ،
في كل عروق الإنسان فلا يخلو منه مدح ولا هجاء ، ولا نسب ولا وصف ولا رثاء .
- ٥ - وازن بين فخر حسان وفخر الفرزدق !
- ٦ - وازن بين رثاء الخنساء ورثاء حسان !
- ٧ - وازن بين الخطيئة وحسان في المدح وفي الهجاء !
- ٨ - اشرح القول الآتي :
« لو عني حسان بجمال السبك وحسن التعبير لتغنى بشعره الزمان » .
- ٩ - اشرح الرأي التالي :
« كان هم النابغة كسب المال فأجاد مدح الملوك ؛ وكان هم حسان اللهو وإرضاء النفس فمزج مديحهم بوصف النعيم والافتخار » .
- ١٠ - ناقش القول التالي :
لا يستسيغ المرء شعر حسان إلا إذا قرأه مرات ؛ لإهماله نضاعة العبارة ، وشدة وطأة اللفظ على معانيه الخصبية الطريفة .
- ١١ - حسان شاعر أحب حياة الهزل والمرح فأجبر على الجد والنكد .

DATE DUE

MAY 1935

A. U

الكناني، خلدون
حسان بن ثابت. محاضرة القيت في دار

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01034030

